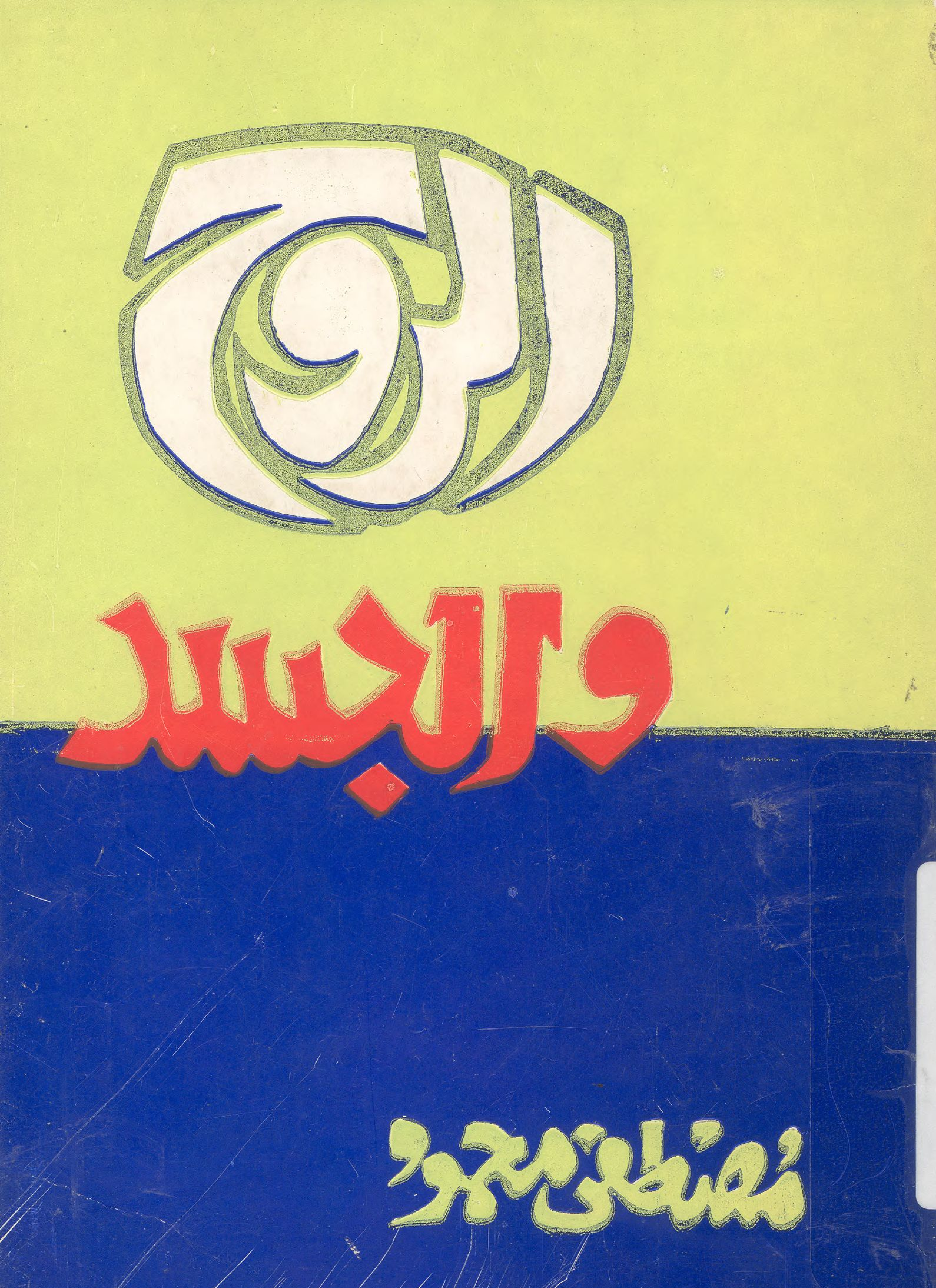

الروح
والجسد
مصطفى محمود

اهداءات ٢٠٠١

ا.د/ هنري أمين عوض

القاهرة


الروح والجسد

مصطفى محمود

الروح والجسد

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
بالقاهرة ت: ٧٦٢٢٣١

الطبعة الاولى

١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

الصمت

نحن نتبادل الكلمات .والحروف والعبارات .كوسائل للتعبير عن المعاني وكأدوات لكشف كوامن النفوس .. ونتصور ان الحروف يمكن ان تقوم بذاتها كبدائل للمشاعر ويمكن أن تدل بصدق على ذواتنا ومكنوناتنا .

والحقيقة ان الحروف تحجب ولا تكشف .. وتضلل ولا تدلل .. وتشوه ولا توضح .. وهي ادوات التباس اكثر منها ادوات تحديد ..

يقول الحبيب لحبيبته :

ـ احبك

وهو يقصد بذلك التعبير عن حالة وجدانية خاصة جدا وذاتية وجديدة عليه فلا يجد الا كلمة هي صك مستهلك تهرأ من كثرة الاستعمال .. كلمة اصبحت ماركة مسجلة لأردأ انواع البضائع .. كلمة حولتها الاغاني المبتذلة والهزليات

المسرحية الى مبولة او بالوعة او في احسن الاحوال الى منشفة لتجفيف ما ينضح من العرق : في حالات فسيولوجية عديدة ومتناقضة .

ولكنه لا يجد غيرها .

فاذا حاول ان يستخرج من قاموس الحروف ومعجم العبارات كلمات اخرى فانه لا يجد الا المجاز والاستعارة والبيان والبديع وضرب الامثلة .. فيقول لحبيبته انه يحبها كما تحب الوردة ندى الفجر أوكما تحب ظلمة الليل شعاع الشمس اوكما تحب صغار العصافير اعشاشها .. وهوكلام فارغ آخر يترجم الحالة الخاصة الفريدة الى سلسلة من البدائل المزورة ويحول الشعور البكر الى ثرثرة جوفاء لا تدل على شيء ..

ولو انه صمت لكان صمته ابلغ ..

وللصمت المفعم بالشعورحكم اقوى من حكم الكلمات..
وله اشعاع وله قدرته الخاصة على الفعل والتأثير ..

والمحب الصامت يستطيع ان ينقل لغته وحبه الى الآخر..
اذاكان الآخرعلى نفس المستوى من رهافة الحس ـ واذاكان هو الآخر قادرا على السمع بلا أذن والكلام بلا نطق .

والانسان معجزة المخلوقات ..

وهو ليس آلة كاتبة .. ولا اسطوانة ناطقة .

وهو اكثر من مجرد آليات جسدية ..
هو عقل وروح ووجدان ..
وذاته مستودع قوى واسرار الهية .

وهو يستطيع أن يتكلم بلا نطق .. ويسمع بلا أذن .. ويرى بلا عيون .

ونحن نرى في الحلم بلا عيون ونسمع بلا آذان ونجري بلا سيقان ..

وقد رأى المبصرون بعيون طه حسين ما لم يروا بعيونهم ..
وفي رؤى أبي العلاء واشعاره ما لا تتطاول اليه عيون المبصرين اصحاب العيون .

والحقائق العالية تقصر دون بلوغها الحروف والعيون والآذان ..

وانما خلقت الحروف للتعبير عن اشتات العالم المادي وجزئياته وهي مجرد رموز ومصطلحات ونظائر لما نرى حولنا من شجر وحصى ورمل وبحر وتلال ووديان وجبال .

اما عالمنا الداخلي .. وسماواتنا الداخلية .. وسرائرنا العميقة .. فتقصر دونها الحروف ولا تصورها كلمات ..

وكلما كان شعورنا حميما وكلما كان حبنا متغلغلا في شغاف القلب مالكا لناصية السر ساكنا لب الفؤاد كلما عجز اللسان وتضعضعت الكلمات وتقطعت العبارات ..

والحقائق الالهية أكثر استحالة على الالفاظ ،

هنا الالفاظ تتحول الى جلاميد صخر لا تصلح على الاطلاق لوصف ذات الله المطلقة .

والألفاظ في رحاب الله .. استار وحجب .. والكلمة حائل .. والعبارة عائق .. والاصطلاح عقبة .

يقول الله سبحانه في مخاطباته القدسية للصوفي الصالح محمد بن عبد الجبار .

كل ما فوق وتحت وعن يمين وشمال وكل ما بدا ليس مني .

الحروف لا تدل عليّ .. الكلمات لا تدل على اوصافي ..

أوصافي التي تحملها العبارة هي اوصافك بمعنى ..

وحينما اقول اني انا الرحيم فانك تفهم رحمتي برحمتك وما رحمتي يا عبدي كرحمتك .

انما أوصافي من وراء العبارة .

ومن اوصافي اني « الأبد » .. ولا عبارة في الأبد ..

انا الذي ليس كمثله شيء .

فيا مختلف لا تستدل عليَّ بمختلف فتخطىء الطريق الى معرفتي ..

انما يكون تعرفي اليك بلا نطق وبلا عبارة .
وإذا جاءك وصفي بلا عبارة فهي تلك الحقيقة
واذا وقفت في حضرتي فسترى الحروف اصناما
والعبارات اوثانا ..
ويقول الصوفي الصالح في دعائه وابتهاله
« يا رب لا تَذْرني بمذراة الحروف في معرفتك »
فيشبه الحروف بالمذراة التي تذروكل شيء فلا توصل الى
معرفة حقة ..

هذا هو عالم السر والطلسم الذي يتم الاتصال فيه بالروح
بدون مواصلات المادة وبدون أداة الكلمة

يقول الله سبحانه في مخاطباته الالهية للصوفي محمد بن
عبد الجبار .

الحرف حجاب

الحرف يعجز عن ان يخبر عن نفسه فكيف يخبر عني .
انا خالق الحرف وما يخبر عنه الحرف فانا من وراء
الاثنين .

اخرج عن الحرف اخرج عن نفسك اخرج عن اسمك
اخرج عن كل ما بدا تكن في حضرتي . أُصْمِت منك الصامت
ينطق الناطق بالضرورة (والناطق هنا الروح) ..

وهذا هو عالم المطلقات الذي لا تحلق اليه كلمات ولا تسمو اليه الفاظ .

ومعدن الحب الشفيف العالي هو من نفس معدن هذه المطلقات ولغته من لغتها .. فهو من خصائص الروح .. وهو في صميمه انعطاف روح قبل ان يكون انعطاف جسد وحينما تبلغ المشاعر الى تلك المنطقة يسكت اللسان وتصبح اللغة صمتا.

.. ولهذا احب الصمت وأوثر الصمت كلما شعرت بهذا القرب الحميم نحو انسان .. ذلك القرب الذي يتسلل الى الشغاف ويسكن الحنايا دونما صخب ودونما ضجيج ودونما اضطراب .

فهنا لا وجود للانفعال المبتذل الذي تتكلم عنه الاغاني

ولا وجود للاوجاع والبكائيات

ولا مكان لبلاهة قيس واشعاره

ولواني استعرت تلك الكلمات القديمة لأعبر بها عن ذلك القرب الحميم لكنت ثرثارا أجوف اتكلم عن رجل آخر غيري ..

فهنا شعور جديد تماما وخاص جدا وذاتي .

هنا حضور مؤنس يشيع الدفء والبهجة الهادئة والاحساس بالمعية التي تطرد الوحشة والوحدة ..

هنا كل شيء هامس خافت بلا صوت وبلا صورة وبلا لفظ وبلا غرض وبلا مأرب ..

فما ابلغ الصمت

وما اقدره على التعبير

الصراخ

نحن في عصر الصراخ ..
مدنية اليوم اسمها بحق .. مدنية الصراخ .
علاقة الحب صراخ ..
وعلاقة الزواج صراخ ..
وعلاقات المجتمع صراخ طبقي
وعلاقات الدول صراخ سياسي
والشعارات صراخ فكري

والمذاهب تحريض علني للأغلبيات على الاقليات والاقليات على الاغلبيات ولافتاتها المرفوعة هي الصراخ والهتاف والصياح والنباح .

والبيوت التي ترفع لافتة الحب على بابها .. تعيش حياة

هي أقرب الى الصراع على السلطة منها الى تعاون المحبة والرحمة بين ازواج وزوجات .. حياة اقرب الى صراخ يومي وتنازع حكم ورأي في كل شيء وكأنما المطلب الذي يصحو به كل واحد هو من يحكم اليوم .. من يسود .. من يمسك باللجام .

واذا اعوزت المرأة مبررات السيادة والقيادة التمستها بالغيرة واتخذت من الشك ذريعة حصار وسببا لايداع الزوج السجن واعلان احكام الطوارىء في البيت ليل نهار ومصادرة الخطابات والتسمع على التليفونات وتفتيش الملابس الخارجية والداخلية .. فاذا لم تعثر على جسم الجريمة ولم تضبط احرازاً.. فانها تعلن انه لا بد من تفتيش الدماغ وكسرها ان امكن بالقبقاب أو بالحجج الفلسفية حسب درجة ثقافتها وحسب حظها من التربية في بيت ابيها .. فاذا لم تجد شيئا في دماغه .. فلا بد اذن انه كان هناك شيء في الماضي قبل ان يتزوجها .. لا بد انه كان على علاقة ما في يوم ما .. فهذا شأن جميع الرجال الملاعين .. وجميع الرجال ملاعين .. الى ان يثبت العكس .. ولا يمكن ان يثبت العكس أبدا .

والمهم أن يصل الحوار الى صراخ وعويل ولطم وندب .. ومرة اخرى تتوقف ردود الفعل على حظ الزوجة من الثقافة ومن تربية البيت .

ودائما في كل زواج هناك شيء ناقص .. اذا وجد الحب، صرخت الزوجة لانها لا تجد كفايتها من المال واذا وجد المال صرخت لانها لا تجد كفايتها من الحب واذا وجد الاثنان صرخت لأن الزوج له ماض واذا وجد كل شيء التمست سببا للنكد في حياة الاولاد .. المهم ان تصرخ وتفش الغل .. ودائما هناك غل بسبب وبدون سبب وكأنما الغل هو التراث الحضاري المشترك للنساء جميعا .

صدق الله العظيم حينما قال في قرآنه عن أهل الجنة .

« ونزعنا ما في صدورهم من غل »
لان الغل هو السر في الجحيم الذي نعيشه
الغل في المرأة وفي الرجل وفي الدولة .

حتى الغل في الضحك هو عنوان تعاسة .. الضحك المغلول والتهريج المجلجل والمرح الوحشي هو الآخر عنوان افتعال .. ومحاولة مصطنعة لتغطية اصوات القلق والحزن الدفين واليأس الأكّال في داخل القلب بأجراس الضحك وبقرع الكؤوس المخمورة .

والسعادة الحقة لا يمكن ان تكون صراخا .. وانما هي حالة عميقة من حالات السكينة تقل فيها الحاجة الى الكلام وتنعدم الرغبة في الثرثرة .. هي حالة رؤية داخلية مبهجة

واحساس بالصلح مع النفس والدنيا والله واقتناع عميق بالعدالة الكامنة في الوجود كله وقبول لجميع الآلام في رضى وابتسام .

والسعادة الحقة نوع من أنواع شهود الله في آيات عظمته أوكما يقول الصوفي محمد بن عبد الجبار.. هي شهود « ما لا ينقال » .

يقول لك ذلك الصوفي .

ان لم تشهد « مالا ينقال » تشتت بما ينقال . وتوزعت بين آلاف المقولات والمغريات وتعلقت بما لا يدوم وبما لا يثبت للحدثان .. كما تتعلق الموجة بالموجة . وكما يتعلق المتحرك بالمتحرك والناقص بالناقص والزائل بالزائل والمنهدم بالمنهدم.. وهو مثل لجوء الخراب الى الخراب والخراب لا يصلح ملجأ.. ولهذا ينتهي أمرك الى الخيبة والفشل .

ولهذا لا يصح التعلق الا بالله .. لانه هو وحده الثابت الصامد « الصمد » الذي لا يتغير ولا يتقلب ولا تلحق به العوارض .

وبين يدي الله . السكينة هي الحال والصمت هو المعرفة .

لأن المطلق لا تسعه عبارة ولا تحيط به حروف .. فالجهل به هو عين معرفته والصمت هو عين ادراكه .

ولهذا يرى الصوفي محمد بن عبد الجبار ان الحب بمعناه المتداول وهو (ان تحتل امرأة عقل رجل وتسد عليه جميع أقطاره وتصبح شاغله ومطلبه الوحيد) هو باب من ابواب الكفر والشرك .

ويقول الله للصوفي في مخاطباته :

ان جعلت لغيري عليك مطالبة اشركت بي فاهرب هربين هربا من الغريم وهربا من يدي .

ويقول الامام الغزالي نفس الرأي في هذا اللون من الحب الدارج .. ه سقوط بالهمة .. لانه تعلق بهواء .. تعلق الزائل بالزائل .

ولهذا وصف القرآن العلاقة السوية بين الرجل والمرأة بأنها المودة والرحمة . ولم يسمها حبا ، وجعل الحب وقفا على علاقة الانسان بالله ، لانه وحده جامع الكمالات الجدير بالحب والتحميد وجاءت لفظة الحب في القران عن حب الله وحب الرسول .. وجاءت مرة واحدة عن حب المرأة على لسان النسوة الخاطئات حينما تكلمن عن امرأة العزيز وفتاها الذي « شغفها حبا » .. وهو حب رفضه يوسف واستعصم منه واستعان بربه وآثر عليه السجن عدة سنين .

وهي جميعا مؤشرات تكشف عن سبب الاحباط العام والتعاسة في مجتمعات العصر وبيوته .. بسبب حب هو كفر

وزواج هو انانية وصراع طبقي هو حقد ومذاهب هي انتقام وشعارات هي كذب .. وعالم ضاعت منه الموده والرحمة وافتقد الايمان بالملجأ الحقيقي واصبح شعاره لجوء الخراب إلى الخراب .

لجوء الشباب الى الجنس والمخدرات الذي لا يختلف كثيرا عن لجوء امريكا الى العنف ولجوء اليهود الى العنصرية ولجوء الطبقات المطحونة الى اوهام المذاهب المادية ووعودها وتحريضها .. ثم محاولة اغراق الخيبة النهائية والفشل النهائي في شعار ملفق . او دعاية كاذبة او مباراة كرة او صراع ثيران او طبل وزمر .. ثم يعود فيغرق الفرد يأسه في حب اوكأس او نوبة غضب او رفض لكل شيء او اتهام للكون وخالقه بالعبثية ، مع ان الكون كله من اكبر مجرَّة الى اصغر ذرة ينطق بالنظام والاحكام والابداع ويشهد بالخطة .. وبانه لا شيء فيه خلق عبثا .

ويقول اصحابنا الماديون ان الكلام الكثير في الله والدين ترف ليس هذا وقته ولا اوانه .. ويقولون .. لسنا ملحدين ولا دعاة الحاد انما نقول فقط ان هذه المسائل غير مطروحة وان هذا ليس اوانها .. واقول لهم انا بل هي مطروحة بشدة وهذا أوانها .

اقول لهم ان هذا الصراخ والصياح وخراب النفوس

وتمزق الارواح. سببه الاول اعتقاد اصحابها انهم يعيشون في عالم بلا اله .. وانهم يبحثون عن عدل دون اعتقاد في عادل .. ويحاولون النهوض بحياة يعتقدون ان مصيرها التراب .

واذا صدقنا معهم اننا لا نملك الا لحظتنا وحياتنا هذه فانه لا يبقى امامنا الا ان نتقاتل عليها في بشاعة ثم نموت كلنا وندفن السيد الى جوار العبد وصاحب العمارة إلى جوار بوابها بدون معنى لكل تلك الضراوة والبشاعة التي تقاتلنا بها .

اعتقاد هو الخراب بعينه .

وحماسة تهزم نفسها بنفسها وتنقض نفسها بنفسها لا تلد إلا نفوسا شائهة تصرخ وتصرخ بلا مقتضى وبلا موجب مفهوم .

وقديما قالوا ان البيوت السعيدة لا صوت لها .. ولا أحد يتخذ منها مادة للكلام ولا احد يروي عنها قصة او يكتب رواية اوينتج فيلما .. وفي رواية الحب التقليدية يسدل الستار دائما عندما يصل الحبيب والحبيبة الى المأذون لأن المؤلف يتصور حينئذ ان الكلام انتهى وانه لم يعد هناك ما يقال لأن السعادة بدأت والسعادة عنوانها الصمت .

فأين هي تلك البيوت السعيدة الآن ..

ما أقلها ..

عن الروح والجسد

سر من اسرار السعادة هو انسجام الظاهر والباطن في وحدة متناسقة متناغمة .

ان غروب الشمس وانسدال العتمة في حنان والنظام المحكم الذي يمسك بالنجوم في أفلاكها واطلالة القمر من خلف السحاب وانسياب الشراع على النهر وصوت السواقي على البعد وحداء فلاح لبقراته ونسمات الحديقة تلف الشجرات التي فضضها القمر كوشاح من حرير .. اذا اقترنت هذه الصورة الجميلة من النظام والتناسق بنفس تعزف داخلها السكينة والمحبة والنية الخيرة .. فهي السعادة بعينها .

أما اذا اقترنت هذه الصورة من الجمال الخارجي بنفس يعتصرها الغل والتوتر وتعشش فيها الكراهية وتنفجر داخلها قنابل الثأر والحسد والحقد ونوايا الانتقام .. فنحن أمام

خصومة وتمزق وانفصام . نحن امام هتلر لا حل له الا ان يخلق حزبا خارجية تناسب الحرب الداخلية التي يعيش فيها .. نحن أمام شقاء لن يهدأ الا بأن يخلق شقاء حوله .

ان السعادة في معناها الوحيد الممكن هي حالة الصلح بين الظاهر والباطن بين الانسان ونفسه بين الانسان والآخرين وبين الانسان وبين الله . فيسكب كل منهما في الاخر كأنهما وحدة ، ويصبح الفرد منا وكأنه الكل .. وكأنما كل الطيور تغني له وتتكلم لغته .

أما الصورة الدارجة للسعادة التي تتداولها الالسن عن شلة الأنس التي تكرع الخمر في عوامة وحولها باقة من النساء الباهرات العاريات وأجساد تتخاصر وشفاه تتلاثم في شهوة مشتعلة وأفواه تتنفس الحشيش في خدر وتلذذ .

هذه الصورة هي حالة شقاء وليست حالة سعادة فنحن مع نفوس تركت قيادها للحيوان الذي يسكنها وكرست حياتها لارضاء خنزير كل همه أن يأكل ويضاجع .

هي حالة عبودية .. حالة غرق للانسانية في مخاط حيوانية اللزج .

ومثلها حالة السعداء الآخرين الذين يتسلقون على بعضهم بعضا جريا وراء المناصب والآخرين الذين يكدسون المال

والطين والعقار ويلتمسون السلطة والقوة بكل السبل .

فالسعادة لا يمكن أن تكون في المال أو القوة أو السلطة بل هي في « ماذا نفعل بالمال والقوة والسلطة » .

في النفس التي تستخدم المال والقوة والسلطة .

السعادة ليست في البيت المفروش بالسجاجيد العجمي والشينوا والكريستال ولكن في النفس التي تسكنه .

« والخارج » لا يستطيع ان يقدم لنا شيئا اذا كنا نحن من « الداخل » .. من نفوسنا .. غير معدين للانتفاع بهذه المنحة الخارجية السخية .. واذا لم نكن في صلح مع هذا الخارج وفي تكيف معه .

وفي قصة لتولستوي يقول الاقطاعي للفلاح الطامع في أرضه سوف أعطيك ما تشاء من ارضي . تريد عشرة فدادين .. مائة فدان .. ألفا .. لك أن تنطلق من الآن جريا في دائرة تعود بعدها الى مكانك قبل ان تغرب الشمس فتكون لك الدائرة التي رسمتها بكل ما اشتملت عليه من أرض .. شريطة أن تعود الى نقطة البدء قبل غروب الشمس أما اذا غربت الشمس ولم تعد فقد ضاعت عليك الصفقة .. ويفكر الفلاح الطماع في دائرة كبيرة تشمل كل أرض الاقطاعي .. وهو مطمع يحتاج منه الى همة وسرعة قصوى في الجري حتى

يحيط بها كلها في الساعات القليلة الباقية على الغروب .

ويبدأ في الجري وكلما تقدم الوقت كلما وسع من دائرته اغتراراً بقوته وطمعاً في المزيد وتكون النتيجة ان تتقطع أنفاسه ويسقط ميتا قبل ثوان من بلوغ هدفه .. ثم لا يحصل من الأرض الا على متر في متر يدفن فيه .. وهذه هي حاجة الانسان الحقيقية من الأرض بضعة أشبار يرقد فيها..وهو ينسى هذه الحقيقة فيعيش عبدا لأهواء وأطماع وأوهام تضيع عليه حياته .

وقد فطن تولستوي الى هذه الحقيقة فوزع أرضه على الفلاحين وهرب من بيته الانيق الدافىء وسكن [illegible] كوخ حقير مع الفقراء المعدمين .

وكذلك فعل غاندي الذي عاش على عنزة يحلب لبنها ويغزل صوفها .

وكذلك فعل المسيح الذي عاش بلا بيت وبلا زوجة وبلا ولد ... لا يملك الا ثوبه .

وهؤلاء هم السعداء العظام الذين جاءوا ليعلموا الناس كيف تكون السعادة .

قال لنا بوذا ان السعادة في قمع الرغبة وردع النفس وكبح الشهوة بذلك وحده يكون العتق الحقيقي للروح وتحررها من سجن الجسد .

وقال لنا المسيح : « من أهلك نفسه في سبيلي وجدها » .

وقال طالوت لجنوده في القرآن : « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني » .

والله يقول في حديث قدسي الى الصوفي ابن عبد الجبار : « يا عبد جعت فأكلت ما انت مني ولا أنا منك عطشت فشربت ما أنت مني ولا أنا منك . انما أظهرت الشهوات حجابا عليك لأمتحن محبتك فان اخترتني دون جميع شهواتك كشفت لك عن ذاتك وما عدت أسترك بشهوة .. انما الشهوة تأتيك من ناحية جسدك .. أما ذاتك فقد خلقتها خالصة مبرأة لا تميل الا إليَّ وحدي » .

وكلها اشارات ورموز الى الحقيقة .

فنحن لم نوهب الشهوة لنشبعها أكلا وشربا ومضاجعة وتكديسا للمطامع والثروات .. وأنما وهبنا الشهوة لنقمعها ونكبحها ونصعد عليها كما نصعد على درج السلم .

فالجسد هو الضد الذي تؤكد الروح وجودها بقمعه وكبحه وردعه والتسلق عليه .

وبقمع الجسد وردعه وكبحه تسترد الروح هويتها كأميرة حاكمة وتعبر عن وجودها وتثبت نفسها وتستخلص ذاتها من قبضة الطين وتصبح جديرة بجنتها وميراثها .. وميراثها السماء

كلها ، ومقعد الصدق الى جوار الله .. وهذه هي السعادة الحقة.

أما اذا غلب حكم الطين وانتصرت الجبلة الحيوانية وقَرَنَ الانسان ذاته الشريفة بالمادة الطبيعية فقد هبط بنفسه الى سجن الضرورات والى غلظة الآلية والى نار الطبيعة التي تأكل بعضها بعضا وأصبح منها وفيها ولها .. وتلك هاوية التعاسة والتمزق والشتات .

وطريق الانسان هو هذا الكدح خارجا من قبضة مادته الى نورانية روحه .

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » .

وهو في مكابدة دائمة من لحظة ميلاده يتأرجح بين قطبي جسده وروحه في قلق لا يهدأ وصراع لا يتوقف .. يصعد ثم يسقط ثم يعاود الصعود ثم يعاود السقوط .

وكل منا له معراج الى الكمال .

وكل منا يصعد على قدر عزمه وايمانه .

ولا صعود بدون ربط الأحزمة على البطون وكبح الشهوات .

والكامل حقا لا يرى في الحرمان حرمانا فموضوعات اللذة المادية لم تعد بذات قيمة في نظره فهو قد وصل بادراكه العالي الى تذوق المتع الروحية واللذات المجردة .. فأصبحت

الماديات بعد ذلك شيئا غليظا لا يسيغه .. وهو ارتقاء اذواق وليس فقط ارتقاء همم وعزائم .

والصوفية يسمون هذا المعراج النفسي بالخروج .. الخروج من الصفات البشرية الى الصفات الالهية .

والله يطوي الصفات البشرية عن احبابه كما يطوي لهم الارض ويجذبهم اليه .. وهي الجذبة الصوفية .. وهي اذا جاءت لصاحبها على غير استعداد جعلت منه مجذوبا خارجا عن صوابه ، وهي رتبة دون الكمال .. لأن الكمال هو الصلاح بوعي .. وليس الصلاح بفقد الوعي .

والأنبياء في هذا الموضوع هم القدوة .

ولم نعرف نبيا واحدا كان مجذوبا أو هائما على وجهه بلا عقل .

وهذه احدى مزالق الطريق الصوفي .. أن يتعجل السالك الطريق برياضات الخلوة الحادة ومجاهداتها المضنية فيفقد حيوانيته وعقله معا .

والقرآن كان هو المنهج الامثل لهذه التزكية النفسية فاختار طريق الوسط .. طريق الاعتدال ، بين الافراط والتفريط .

« كلوا واشربوا ولا تسرفوا » .. فنصح بضبط النفس على جادة الاعتدال .. لا رهبانية وصيام الدهر .. ولا اطلاق

لعنان الشهوات .. وانما ضبط السلوك على دستور الشريعة والوصايا .. وهومنهج يؤدي الى العروج الروحي دون تعسف ودون جذب .

ولا يهتم المسلم السالك بأن تجري على يديه الكرامات وخوارق العادات وانما هويقول .. أعظم كرامة هي الاستقامة.

والاستقامة هي سمت الانسان حقا .

وهي تلك الحالة التي وصفناها في بداية المقال بأنها انسجام الظاهر والباطن في وحدة متناسقة متناغمة .. وأنها حالة الصلح بين الانسان ونفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله .



لا نسمع كلمة « جهنم » هذه الايام الا في نكتة .

وقد تحولت جهنم في ذهن الرجل العصري الى اسطور يذكرها وهويبتسم وكأنما يتذكر منظرا في رواية لدراكولا .

واصبح مألوفا ان نجد بين المؤمنين من يتكلم عن جهنم في شك ..

ونسمع من يتساءل قائلا :

« كيف يعذبنا الاله الرحيم .. ومن نحن حتى يعذبنا .. انه لا شك يخوفنا ولكنه سوف يفاجئنا يوم الحساب بالعفو الشامل ويدخلنا برحمته جميعا في الجنة .. مستحيل على الاله الرحيم ان يعذب احدا .. مستحيل .. »

ويتصور المتكلم انه بذلك يرد اعتبار الرحمة للرحيم وانه يقدر الله حق قدره .. والحقيقة انه يسيء الى الخالق من حيث

يتصورانه يحسن ويلصق به الظلم من حيث يتصورانه يصفه بالعدل .

تلك الصورة الساذجة لاله يساوي بين المجرمين وبين ضحاياهم في الجزاء ويقيم للقاتل والقتيل كليهما حفلة شاي ..

من يكون ذلك الاله الا الها ظالما ..

وهل يستوي الابيض والاسود الا عند الأعمى

انه منتهى سوء الظن بالله ان نتصورانه يضع كل الناس في الجنة ويساوي بين السفاحين الجبارين وبين الالوف من قتلاهم الابرياء الذين هلكوا في السجون .. لمجرد اننا لا نتخيل الها يعذب ..

ولا ادري من اين جاء المؤمن أو الكافر بأن الله لا يمكن أن يعذب ..

واذا اتخذنا دنيانا مثلا .. واتفقنا بأن هذه الدنيا التي نعيشها من خلق الله .. فلا بد ان نوافق بالاجماع على ان الله يعذب .. فلا شيء في هذه الدنيا أصدق من العذاب ..

من الذي خلق الميكروب

من الذي خلق السم في الثعبان

من الذي يفجر البركان ويغرق قرى بأكملها تحت الحمم الملتهبة .

من الذي خلق زمهرير القطبين ورفع الشمس عمودية تسلق جلود سكان خط الاستواء .

من الذي قضى علينا بآلام الشيخوخة واوجاع الحمل .

من الذي يدفن المدن تحت الزلازل

انه ليس الشيطان .. ولكنه هو هو نفس الاله الرحيم الذي وضع العطر في الزهرة والترياق في العشب .. وهو هو نفسه الذي خلق الربيع والصحة واودع القوة في العضلات والحب في القلوب والبسمات على الشفاه .. وهو هو ذاته خالق الحنان والمودة والتعاطف .. وهو الذي أعطانا العقل والحيلة لنركب البحر والبر والجو ونتغلب على الحر والبرد ونقاوم المرض والموت .

وهو هو الذي وفر لنا الغذاء والكساء واسبغ علينا ثوب العافية والسعادة .

وقد وصف نفسه في كتابه فقال انه النافع الضار .. وانه المحيي المميت .. وانه الخافض الرافع والقابض الباسط .. وانه المعز المذل .. وانه الفعال لما يشاء الذي يعذب من يشاء .. لا راد لقضائه ولا معقب لأمره .. ولا يسأل عما يفعل

وفي نفس هذه اللحظة التي اكتب فيها هذه الكلمات هناك عشرات من عربات الاسعاف في كل مكان بالعالم تحمل على محفاتها محروقين يئنون ويتحشرجون ويصرخون ..

ولا شيء من هذا يحدث ضد المشيئة الالهية .. وانما كل شيء يحدث بعلم الله وتقديره .

وقد نفعل ما لا يُرضي الله فنسرق ونقتل وندمر ونحرق ولكننا لا نستطيع ان نفعل ما لا يشاء الله.. فجميع الاحداث والافعال تحدث ضمن المشيئة الالهية وان خرج بعضها عن الرضا الالهي .

وفي مشيئة الله وفي الواح قدره ان هناك الشقي والسعيد وان هناك من يقضى له بالنعيم ومن يقضى عليه بالعذاب بل وبالحرق وفي هذه الدنيا عينها التي نعيشها .

ومصداق هذا الكلام واضح في حياتنا وشواهده في دفتر يوميات كل شخص .. وليس بحاجة الى برهان .

واكثر من هذا نعلم من خبراتنا المباشرة ان العذاب لا يتناقض مع الرحمة بل يكون احيانا هو عين الرحمة .. فهناك نفوس لا تستفيق الا بالعذاب .. بل تكاد تكون القاعدة ان القلب لا يصحو الا بالألم والنفس لا تشف وترهف الا بالمعاناة والعقل لا يتعلم الا بالعبرة والقدم لا تأخذ درسا الا اذا وقعت في حفرة .. فجهنم الدنيا لا تتنافى مع العدل الالهي اذا نظرنا للأمور كلها نظرة شاملة .. والحالات الفردية التي نعجز فيها عن رؤية الحكمة في العذاب والتعذيب يكون سببها جهلنا وقصورنا عن الاحاطة وليس ابدا ظلم الله ..

جهنم اذن موجودة بكل درجاتها في النموذج المصغر والعينة التي نعيشها والتي اسمها الدنيا .. هي موجودة من الحريق الفعلي الذي يسلق الجلد نزولا الى الألم النفسي والمعنوي.. وكلها من تدبير الله وفعله وخلقه .. وكلها رحمة .. وكلها لحكمة احيانا تظهر لنا واحيانا تخفى علينا ..

هذه هي الحقيقة المشاهدة الملموسة .. فلماذا تستبعد العقول فكرة الاله الذي يعذب .. وفكرة جهنم .. مع اننا نعيش عينة مصغرة من جهنم كل يوم .

نقول هذا الكلام للذين فهموا الله فهما سطحيا وتصوروا ان العذاب والتعذيب محال عليه مناقض لرحمته وانه سوف يسوي في آخرته بين المجرمين والشرفاء فيدعو الكل الى جروبي ويقدم لهم ما لذ وطاب باسم المحبة الخالصة التي وسعت كل شيء

نقول لهم ان الله يعذب

وان عذاب الله دائما هو عين رحمته

وان هناك ضمائر لا تتيقظ الا بالعذاب .

وان هناك عقولا لا تعرف الله الا حينما ترى عذابه وان هناك نفوساً مظلمة لا تشهد الحق في النعمة ولا سبيل الى

تعريفها بالحق الا بالعنف .. مثل اللحم الميت الذي لا علاج له الا بالكي .

ولمثل هؤلاء جهنم هي عين الرحمة لأنها الوسيلة الوحيدة الباقية للتعليم بعد أن اصر المنكر على انكاره والمتعامي على عماه وبعد استنفاد كل السبل السلمية للاقناع وبعد ان فشلت الكتب والرسل وعبر التاريخ وآيات السماء في التماس مدخل الى القلب .

حينئذ تصبح جهنم هي الجراحة الوحيدة الممكنة لفتح العين واشهاد الحواس ..

وهي بهذا المعنى لا تتنافى مع رحمة الرحيم بل هي عين رحمته .

الجنة

هي قادمة من لندن منذ ايام بعد سياحة قصيرة... ذهبت وعلى وجهها براءة وفي خطوتها حياء .. وعادت متنمرة متحفزة تتدلى من شفتيها سيجارة تنفث دخانها متواصلا كمدخنة وقد وضعت ساقا على ساق وراحت تحملق في وجهي في صرامة وحدة .

كنت في عجب من التغير السريع .

اين ذهبت الانوثة الفياضة والملامح اللذيذة الهشة مثل غزل البنات التي كانت تتلون بحمرة الخجل لأقل خاطر .

انا امام شيخ غفر .

سألت في توجس لعلي أكتشف السر :

ـ ترى كيف رأيت لندن ؟

جاء ردها كطلقات مدفع رشاش .

ـ رأيت الجنة .. انهم هناك يعيشون في الجنة .. حرية .. حرية .. حرية .. حرية في كل شيء .. البنت هناك تفعل ما تشاء كما تشاء تخرج وقتما تريد تعود وقتما تريد .. أولا تعود . اذا حلا لها الا تعود .. تعانق فتاها امام الجميع وتقبله امام الجميع وتختلي به ويختلي بها وتفعل به ويفعل بها كل ما يلذ لهما دون خوف من ان تتلصص عيون الآخرين لتعرف ماذا يجري تحت الملاءة .. العسكري يحرس المنظر الجميل من الفضوليين ويحمي الخلوة بقوة القانون .. الأهل يباركون هذه الحرية الجنسية ولا يدسون أنفهم فيها .

لا أحد يسأل .. هل هو زوجك .. هل هو خطيبك .. متى نقول مبروك .. كل واحد في حاله .. كل واحد له لذته وخلوته وصاحبته . هذه هي الحياة .. هذا هو التقدم هذه هي الجنة .

كنت استمع في دهشة .. واذكر زيارتي انا الآخر للندن وكيف اعجبت بها .. ولكن لسبب آخر مختلف تماما .. فقد اعجبني فيها النظام والجدية والعمل والانتاج وديمقراطية الرأي .. ولم الق بالا لظاهرة الهيبيز والتحلل الجنسي .. فقد رأيت فيها في ذلك الوقت مظهرا لتداعي امبراطورية عظيمة

وعرضا من اعراض تصدعها .. ولو ان شباب بريطانيا بدا بهذه الصورة الرخوة المنحلة لما قام لبريطانيا بناء تحت الشمس ولما استطاعت ان تقتحم بأساطيلها البحار السبعة .. انها قصة ميلاد وموت الامبراطوريات كما تعلمناها من التاريخ .. تبدأ بالعصامية والفقر والتقشف والصبر والكفاح وتنتهي بالشيخوخة في الترف والانحلال .. قصة لا يمل التاريخ من تكرارها على اسماعنا ..

وأفقت من ذكرياتي وتأملاتي على صوت صاحبتنا يصفعني من جديد ..

ـ هيه .. متى تتقدمون أيها الرجال .. وتخلعون عنكم ثياب الرجعية والتخلف وتعاملون المرأة كآدمية لها الحق في ان تستمتع .. متى نعيش احرارا .

قلت وانا ما زلت مندهشا من هذا التحفز في نبراتها .

ـ ولكنك على ما أعلم حرة .. أنت حرّة .. في امكانك ان تفعلي ما تشائين .. ليس في رفقتك شرطي وليس في يدك اغلال .. ولست رهن تحقيق او اعتقال .. واذا قررت بينك وبين نفسك ان تفوزي بمتعة فأنت تحصلين عليها في غفلة من الجميع ورغم انفهم .

فصاحت بحدة .

ـ ولماذا لا استمتع علنا امام الكل .. لماذا لا تكون الأحضان والقبلات مثل التموين المشروع نتبادلها بلا خوف .. لماذا لا تكون الحرية الجنسية في بطاقة تموينا .. مثل السكر والزيت والشاي حقا مقررا لا نقاش فيه ولا عيب ولا حرام .

لبثت لحظة أمسك رأسي محملقا في هذه التي عرفتها عذراء مثل فتافيت السكر .. كيف تتكلم الآن في ضراوة مثل الغولة ؟

واعجب ما في الأمر .. انها كانت تتكلم في زهو وخيلاء . وكأنما تحمل الى العالم بشارة جديدة او نظرية عميقة او مذهبا فلسفيا .

قلت لها :

ـ ولكن هذا مذهب القرود .. وهو امر قديم جدا لا تقدم فيه ولا تقدمية .. فالقرود يتناكحون ويتلاقحون ويتعانقون في الاقفاص ونحن نصفق لهم ونبارك حريتهم ونلقي اليهم بالموز والسوداني .. هذه نظرية لا يحتاج اكتشافها الى رحلة الى لندن وانما تكفي رحلة الى جبلاية القرود .. لقد كلفت نفسك مشوارا طويلا بدون مقتض .

قالت في غيظ :

ـ سوف تعود الى كلامك الفارغ .

والحق اني كنت في حيرة من كل هذا الغيظ .. ومن كل هذا الغل الذي جرى به الحوار .. فليس بيننا ثأر قديم على ما اعلم . وان كنت ادعو الى العفة .. فاني لا افعل هذا لحسابي الخاص .. وانما هي حقيقة وخبرة وممارسة ومعاناة وخلاصة عمر .. احاول ان اوصل ثمرتها الى الآخرين .. واطرح امامهم رأيا حرا وليس في المسألة تحد .

وجاءني صوتها عنيدا مكابرا .

ـ على العموم اذا كنت اتفادى الصدام معكم الى الآن .. واذا كنت اخضع احيانا لتقاليدكم البالية ايها الرجال .. فانما افعل هذا اشفاقا عليكم لأنكم مساكين .. اشفاقا على الأب والأخ والصديق « بتصعبوا عليه » .

اخيرا .. قالت كلمة حق .. فنحن مساكين فعلا .. ومع مثل هذه العقلية النسائية سنكون جيلا مسكينا من الرجال .. « نصعب ع الكافر »

وليست جنة ابدا تلك الخلوة التي تجمعنا مع مثل هذه العينة من النساء ولوكانت في هايدبارك في لندن تحت اشجار الزيزفون يفعل كل منا بالآخر ما يلذ له .

فهؤلاء لسن نساء .. وانما غيلان ..

ونظرت الى وجهها المتنمر ورحت ابحث عن فتافيت

السكر التي كانت تمس شغاف القلب .. فوجدت وجها تبخرت منه الانثى وبقي شيء متصلب لا يصلح لان يكون وجها لأنثى ولا وجها لرجل .. ولا حتى سحنة لشيخ غفر ..

السائل السحري

ليس أحلى من طعم الماء في فم العطشان .

انه أحلى من العسل والخمر .

وأحلى من القبلة .

وأغلى من مليون جنيه .. بل أغلى من كل ذهب الأرض بالنسبة لرجل يموت من الظمأ .

ولا شيء يعدل قطرة الماء في تلك اللحظة .. أنها اللؤلؤ المذاب والماس السائل والياقوت الحر .. والجنة .

ويكاد العطشان يحس بطعم الماء يتسرب الى كل خلية من خلاياه .. وكأن كل خلية تشرب على حدة وتنتعش وترقص وتترنح في نشوة وتفيق من غيبوبة .

ولا نكاد نجد في اللغة كلمة تعبر في صدق وبلاغة عن

طعم ذلك السائل الذي يقولون عنه كذبا انه بلا طعم وبلا لون وبلا رائحة .

بل ان له أعجب الطعم .

وان طعمه لهو طعم الحياة ذاتها . وطعم البعث والقيام من الموت ولهذا لاندهش اذا قرأنا في التاريخ أن الماء كان الها يعبد في الاديان القديمة .

اما العلم فيقول لنا ان الماء هو أعجب المركبات على الاطلاق فاكثر من ثلثي الجسم الحي بالوزن مؤلف من الماء .

وثلاثة أرباع سطح الارض مغطى بالماء .

وعندنا ٣٢٥ مليون ميل مكعب من الماء في المحيطات وجليد القطبين .. وثلاثة آلاف ميل مكعب من الماء معلق في السماء على شكل بخار ، و٢ مليون ميل مكعب من الماء في جوف الارض .

وبعض الكائنات تستطيع ان تعيش بلا هواء . ولكن لا يوجد كائن واحد حي يمكن ان يعيش بلا ماء .

والماء الذي تقول عنه الكيميا انه بلا لون وبلا طعم وبلا رائحة تعود فتصفه بأن له اعجب واخطر الخواص في دنيا المركبات .

* فجميع السوائل تنزل الى تحت بالجاذبية الا الماء

فهو يصعد الى فوق ضد الجاذبية (بالخاصة الشعرية) ، وبهذا هيأته طبيعته ليصعد مع جذوع الشجر والنخيل والنبات الى أي مدى من النماء .. ولولا ذلك لما ارتفعت ساق خضراء فوق الارض .

* وجميع السوائل تنكمش بالبرودة وتزداد في الوزن الا الماء ، فهو يتجمد بالبرودة ، ويخف في الوزن .. ولذلك امكن لصفائح الجليد البارد ان تطفو وتغطي مياه القطبين وتحفظ المياه تحتها دافئة (بالعزل) صالحة لحياة الاسماك والحيتان ، ولولا ذلك لماتت الحياة البحرية في الشتاء وتحولت البحار الى جمد مهلك .

* والماء بحسب تركيبه الذري كان لا بد له ان يتجمد في درجة مائة تحت الصفر ويسيل في درجة تسعين تحت الصفر ، هكذا تقول لنا علومنا الذرية .. وكان معنى هذا الا يتواجد في ظروف الارض الا على هيئة بخار .. ولكن الذي حدث انه يتجمد في الصفر ويغلي في مائة ، وبهذا أمكن له ان يتواجد في المكان الواحد من الارض على هيئاته الثلاث ، بخار ، وسائل ، وصلب ، وهو أمر آخر حيوي كان لا بد من توفره لتقوم على الارض حياة .

* والماء هو السائل الوحيد الذي يملك قدرات خرافية

على اذابة الاشياء والتفاعل معها .. فهو يأكل الحديد. والصخر.. ...ف المركبات المعروفة وجدت ذائبة في الماء .

* والجزيء المائي كما يشرحه لنا علم الطبيعة الجزيئية هو الآخر جزيء خارق مدهش .. فالاكسوجين ملتحم بالايدروجين على طريقة العاشق والمعشوق ، والذرتان داخلتان في بعضهما .. والالكترون الوحيد في ذرة الايدروجين داخل في ذرة الاكسوجين ، وله وظيفة في مدارها .. مما أدى الى استقطاب الجزيء استقطابا كهربائيا فأحد طرفي الجزيء موجب (وهو الطرف الأيدروجيني) . والطرف الآخر سالب (وهو الطرف الاكسوجيني) .

وهذه الصفة العجيبة جعلت من الجزيء شيئا أشبه بمغناطيس وجعلت الجزيئات تتماسك بشدة وتتجاذب كما تتجاذب عدة من المغناطيسات مما أدى الى ظاهرة التماسك السطحي التي نسميها ظاهرة التوتر السطحي للماء surface tention فيمكنك ان تضع شفرة حلاقة من الصلب برفق فوق سطح الماء فتطفو بسبب هذا التماسك السطحي الذي لا يسمح لشيء باختراقه . وتكهرب الجزيئات المائية هو الذي يفسر الخاصة الشعرية capillarity وهي الخاصة التي يتسلق بها الماء الى أعلى ضد الجاذبية ، والواقع انه يتسلق بالجذب المغناطيسي بين ذراته وبين جدران الأوعية

الشعرية ، وبالتالي يجذب السطح المائي كله معه (لأن السطح كله متماسك) .

وهذه الصفات الكهربائية للجزيء هي السر في قدرة الماء الخرافية على الاذابة .. لأن الطرف الموجب للجزيء يشد اليه الشق السالب من أي مادة ، والطرف السالب يشد اليه الشق الموجب فتنحل المادة الى شقيها السالب والموجب ، وهو ما نسميه بالأيونات السالبة والموجبة وتتأين المادة .. أو تذوب بلغتنا الدارجة .

* وربما كان اعجب ما في الماء قدرته على خزن وتصريف الحرارة ، وكلنا نعلم من خبراتنا العادية أن قضيبا ساخنا من الحديد يمكن أن يبرد في ثوان بينما يظل الماء ساخنا في البانيو ساعات قبل أن يعود الى برودته .

وهي صفة تصبح حيوية جدا حينما نعلم علاقة تبادل الطاقة بين مياه المحيطات والشمس .

فالمحيطات هي الغلاية اليومية التي تسخنها الشمس فتتبخر مياه المحيطات بالحرارة وتصعد الى السماء .. ثم الى أعلى .. الى أجواء السماء الباردة فتتكثف سحبا ، ثم تهطل امطارا ، ثم تسيل انهارا لتصب في المحيطات من جديد .

دورة مائية يومية .

وتبلغ الطاقة الشمسية الحرارية المستخدمة في هذه الدورة في اليوم الواحد أكثر من كل ما أنتج الانسان من طاقة خلال تاريخه كله .

والذي يقتنص هذه الطاقة ويحفظها ويصرفها ويوظفها هو جزيء الماء العجيب .

والماء يتبخر من المحيطات ثم يعود الى المحيطات من جديد في كم كلي ثابت لا ينقص ولا يزيد .. وهذه معجزة أخرى .. فمنذ ثلاثة آلاف مليون سنة منذ بدء الماء على الارض وكميته ثابتة لا تزيد ولا تنقص .. وربما كان الماء الذي تصنع منه اليوم كوبا من الليمونادة هو نفس الماء الذي استحمت به كليوباترة ، وهو ذاته الذي تمضمض به خوفو من آلاف السنين .

* والماء الذي اقتنص الطاقة من الشمس يعود فيصبح مصدرا للطاقة وتنظيم الطقس .. ثم يعود فيصبح مصدرا للطاقة من باب آخر هو مساقط الماء والشلالات والقناطر والسدود .

* والماء هو النحات اليومي الذي يقوم بتشكيل القارات والشواطىء والسواحل ، ويقوم بحفر مجاري الانهار وقيعان البحيرات ، وهو الرافعة السحرية التي تنقل الجبال وتمهد الوديان .

هذا ما يقوله علم الطبيعة والكيميا والجيولوجيا عن الماء..

وما تراه العين المجردة من شأن الماء .

أما في مجال البحث المجهري وما يراه الميكرسكوب في نقطة الماء فهو الأمر المدهش والمثير .

فنقطة ماء من مستنقع تحتشد فيها عدة آلاف من أصناف الاحياء وعدة ملايين من الكائنات الدقيقة من فيروسات وبكتريا وفطر وطحلب .. شعوب وممالك وأمم من الكائنات تأكل بعضها بعضا وتتعايش وتتعامل وتتنافس وتتسابق .. وكل ذلك في نقطة ماء من مستنقع على كوكب هو ذاته أصغر من هباة في الكون الواسع .

ليس عجيبا بعد كل هذا أن نرى الماء مذكورا في القرآن في ٦٤ موقعا على أنه نعمة كبرى يمن بها الخالق على عباده .

وانزلنا من السماء ماء طهورا

وانزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات

وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم

وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض

وجعلنا من الماء كل شيء حي

خلق كل دابة من ماء

خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا

افرايتم الماء الذي تشربون انتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون .

وفي أجمل الآيات يقول الله في مبدأ الخلق : وكان عرشه على الماء .

واذا اعتبرنا الآية تعبيرا بالمجاز عن عظمة الماء وخطره فالمعنى واضح فقد رأينا أن الحياة كلها عبارة عن محلول مائي وأن الماء هو وسيط الفعل الالهي في المخلوقات جميعها فعرش الله وسلطانه وقبضته تتم كلها من خلال الماء .

أما اذا وقفنا عند الحروف واعتبرنا المعنى لغزا مما لا يعلمه إلاّ الله .. فانه منتهي التشريف أن يجيء ذكر الماء مقترنا بالعرش الالهي .

وهو تشريف قد رأينا أسبابه .

ألم نجد في نقطة الماء الواحدة اىما وشعوبا وقبائل وملايين الخلائق مما لا ترى العين .

ألم نجد في جزيء الماء البسيط معجزة تركع أمامها علوم الكيميا والطبيعة والجيولوجيا وتحار فيها عقول العارفين .

هذا الجزيء الذي يخزن الطاقة ويفجر الحياة ويذيب الصخر وينحت القارات وينظم الطقس . هذا اللؤلؤ المذاب والماس السائل الذي يجري على حلق العطشان أحلى من القبل

وأعذب من صرافة الخمر .

حقا .. ما أحفل هذه الكلمات القليلة بالاسرار حينما ترتلها القلوب وتتأملها العقول .

« وكان عرشه على الماء » .

عالم الأسرار

ما اعجب تلك النفس التي في داخلنا .

فيها من النار (الشهوة والجوع والغضب والحقد والحسد والغل) .

وفيها من النور (العفو والتسامح والحلم والفهم والحنين الى النور الاعظم الذي جاءت منه) .

فيها من الطين (الآلية والتكرار والجمود والرتابة والقصور الذاتي والخمول والكسل والعجز عن التغيير والتثاقل والتهابط) .

وفيها من الروحانية (الانطلاق والحرية والشفافية والابتكار والخلق والابداع والخيال والجمال) .

وهي لا تولد نارية ولا نورية ولا طينية ولا روحية ... وانما تولد مجرد امكانية قابلة للصعود او الهبوط الى اي من هذه المراتب .

واذا تأمل الواحد منا نفسه في موضوعية شديدة ونظر الى باطنه في حياد مطلق فانه يلاحظ انه في حالة تذبذب دائم بين هذه المراتب صاعدا وهابطا من لحظة لأخرى ومن يوم لآخر ، من حالة وجدانية الى حالة عقلية الى حالة شهوانية الى صفاء روحاني .

والصوفيون يسمون هذه المراتب بالمقامات ..

وقليل جدا هم الذين يستطيعون الاستقرار والدوام في المقامات الروحية دون ان تشدهم جذبات الشهوة والجوع وأحقاد الحياة المادية وأطماعها .

وكثير جدا هم الذين يستقرون في المراتب السفلية حيث الحياة شهوة ومضاجعة وأكل وشرب وحيث لا هموم الا هموم البطن والفرج .

ويبقى بعد ذلك أوساط الناس ممن يترجحون بين النار والنور بين جذبات العلو وجذبات التسافل ينتشلون انفسهم من اغراء ليقعوا في آخر .

ولان الشيطان مخلوق من النار فلا مدخل له على الانسان الا اذا تهابط الى المرتبة النارية من نفسه (وهي مرتبة الشهوة والجوع والغضب والحقد والحسد والغل) حينئذ يمكن أن يتم التواصل بين الاثنين بحكم المجانسة ، فيستطيع الشيطان

ان يوصل الى الانسان وسوساته وان يؤجج شهواته ويشعل غضباته .. ولكنه يظل معزولا عن من هم في المراتب الروحية العالية بحكم عدم التجانس فهو لا يستطيع أن يوصل اليهم وسوسته .

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى في القرآن للشيطان :

« عبادي ليس لك عليهم سلطان »

لأنهم ارتفعوا الى منطقة يستحيل فيها التواصل وخرجوا من نارهم الكثيفة الى أرواحهم اللطيفة .. حيث لا يسمع الا رفيف الملائكة والهامات الارواح العالية .. وحيث يصبح نفث الشيطان أكثف من أن يصل اليهم .

ولغز النفس الانسانية هو في قابليتها لتمثل هذه الأدوار وقبول هذه المراتب المتفاوتة علوا وسفلا .

يقول الله تعالى عن هذه النفس « .. فألهمها فجورها وتقواها » .

ويقول في كتابه الكريم عن قصة خلق آدم :

« وعلم آدم الاسماء كلها » .

ويفسر الصوفيون ذلك بأن الله جعل نفس آدم قابلة لتجليات الاسماء الالهية .. فالانسان يمكن أن يكون « الجبار » ويمكن أن يكون « الرحيم » ويمكن أن يكون « المنتقم » ويمكن أن يكون « العفو » وهذه كلها أسماء إلهية .. ولكنه

أيضاً يمكن أن يخرج عن هذه الأسماء الالهية؛ ويهبط إلى درك الأوصاف الشيطانية فيكون اللعين والرجيم والمطرود والمحجوب ويمكن أن يهبط الى دركَ الأوصاف الحيوانية ويمكن أن يهبط إلى غلظة الجمادات والى برودة الصخر الاصم .

وهكذا خلق الله لآدم نفسا قابلة للتصور في جميع صور الكائنات .. من أعلاها الى أسفلها .

ويقول الصوفيون في هذا ان الانسان هو الكتاب الجامع بينما الكون مجرد صفحات من هذا الكتاب . أوسطور منه ... فما الارض والسماوات الا صفحات من كتاب جامع هو الانسان الذي يستطيع أن يجمعها جميعا ..

ولهذا أمر الله الملائكة بالسجود لهذه النفس العجيبة التي سواها ونفخ فيها من روحه لتكون قابلة لأن تسع الكون بجميع صوره ومراتبه ودرجاته .. وأخذ على نفسه العهد بتربية هذه النفس وهدايتها وجذبها اليه وتأديبها باللين والمكافأة وبالشدة والتعذيب .. بالرسل وبالكتب وبالمصلحين والهداة .. وبالنذر والكوارث والآلام الهائلة .. ان لم تنفع الهداية .

وقال في كتابه :

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »

كلنا كادحون الى الله زحفا .

كلنا ساعون اليه طوعا أوكرها .. بالناروبالالم والدروس القاسية والتنكيل .. أوطوعا واختيارا وحبا وكرامة .. ولن يستطيع أحد أن يخرج عن الصف .. ولا أن يخرج عن الاتجاه ، فلا يوجد الا اتجاه واحد .. وهوالسير الى الله .. « الى الله المصير » .

« واليه يرجع الامركله » .

« الا الى الله تصير الامور» .

« هوخلقكم أول مرة واليه ترجعون » .

والعبيد هم الذين يسيرون اليه بالضرب والنكال والعصا والعباد الاخيار هم الذين يسعون اليه حبا وشوقا واختيارا ولا يوجد انسان ملحد بحق .. آبق عن الطريق .. فالكل على الطريق .. والملحد هومجرد رجل منكر جاحد معاند لا يدري ماذا يُفعل به ولكنه في الحقيقة سائر على نفس الدرب بالعصا والكرباج شأنه شأن أمثاله من العبيد حقراء الشأن ممن اختاروا ألاّ يكون لهم اختيار .. وتصوّروا أنهم اختاروا الحرية .. والحقيقة انهم اختاروا ان يصكوا على ادمغتهم وقد طبع على قلوبهم وغشي على أبصارهم فصاروا كبهائم السواقي .. تتصور انها تمرح في الشمس والحقيقة انها

مغلولة الى السواقي تعمل راغمة في مقابل حزمة البرسيم .

وفي هذا الجذب الالهي للجميع منتهى الرحمة واللطف والحب والمودة .. فهو سبحانه حريص على اخراج الكل من الظلمات الى النور ثم الى الحضرة الالهية عنده .. الكل واصل في النهاية بفضل الله ورحمته التي وسعت كل شيء ..

ولكن البعض منا سيطول طريقه .. مارا بنار الدنيا ونار الآخرة وهؤلاء هم المجرمون والمعاندون .. والبعض سيصلون الى الحضرة الالهية وهم في حياتهم الدنيوية كما فعل محمد عليه الصلاة والسلام في الاسراء والمعراج حينما اصعده الله من فوق سبع سموات .. لانه اهل للتشريف والتعظيم .. والشريف العظيم لا يجوز له أن ينتظر طويلا بالباب قبل ان يأذن له الملك وانما يجب ان تفتح له الابواب ويتلقى بالاحضان .

هي رحلة الابد والازل من بداية خلق الارواح في الملكوت الى التنزل في الارحام الى الحياة الدنيا الى الموت الى عالم البرزخ الى قيام الساعة الى الآخرة الى ما بعد الآخرة مما استأثر الله بعلمه .

وهي أسرار يستمع اليها البعض في رهبة ويبتسم لها البعض في غفلة ويهزأ بها البعض في جهالة .. ويقول هل

هناك حقا شياطين ويؤمن بذرة لا يراها والكترونات لا يعرف عنها الا آثارها .. وآثار الشياطين في حياته أكثر وضوحا من آثار الالكترونات .. وهي حقائق عند أهل الحقائق ممن لهم حظ في معرفة هذه الاشياء ذوقا وشهودا وممن كشف عنهم الغطاء فرأوا ما لا يرى وسمعوا ما لا يسمع .

والعاقل العليم من دعا الله أن يهديه اليه شوقا واختيارا لا قهرا واجبارا فيكون مثل السادة الاشراف لا مثل العبيد حقراء الشأن الذين يصكون على أدمغتهم وقد طبع على قلوبهم وغشي على أبصارهم فتصوروا أنفسهم من أهل الشطارة وهم من أهل الخسارة .. وتصوروا انهم اختاروا والحق أن شيطانهم هو الذي اختار لهم سوء الدار وسوء القرار .

الأصنام

نحن نقـول اننـا في عصر العلـم واننـا خلفنـا الجاهلية وراءنا بأصنامها وأوثانها .. ولم يعد هناك من يعبد اللات والعزى وهبل ولا من يسجد لبعل .. انتهى الشرك الى غير رجعة .

ولكني أقول بل نحن عبدة أوثان نسجد ونركع ونحرق البخور ونرتل التسابيح والابتهالات في كل لحظة لأصنام لا حصر لها .

نحن في الجاهلية بعينها ولو تكلمنا بلغة الالكترونات .. ولو مشينا على تراب القمر .

انما اختلفت أسماء الاصنام .. واختلفت صورها ونوعياتها .. وتسترت تحت ثياب الالفة .. ولكنها هي الاصنام بعينها .

ماذا يكون جسد المرأة العاري اليوم .. وهل هو الا صنم رفعناه الى مرتبة الاله المعبود المعشوق المرتجى .

لقد أصبحت صورة الجسم العاري ماركة مسجلة نروج بها أي بضاعة .

صورة المرأة العارية هي تعويذة التاجر التي يرسمها على اعلانات السجائر واعلانات الخمور والصابون والبيرة والكاميرات والساعات والحراير والاقمشة حتى أدوية الزكام وشفرات الحلاقة ومعاجين الاسنان .

وهي عامل مشترك في كل أفيشات السينما والمسرح .

وهي على أغلفة المجلات وعلى كروت المعايدة وفي جميع الفاترينات بمناسبة وبدون مناسبة .

وهي على علب الشيكولاته وعلب البونبون وزجاجات العطر ونجدها بدون سبب في اعلان لتروس الماكينات .

ونفاجأ بها في اعلان سيارات تفتح لنا الباب وفي طائرات س م ع تقدّم لنا طبقا من الجاتوه مع ابتسامة . والى جانب مطحنة بن تقدم لنا فنجانا من القهوة .. بل وفي اعلان عن أسياخ الحديد الصلب تدعونا لنبني بيتنا الجديد .. وهي دائما عارية أو نصف عارية أو بالمايوه وعدسة الكاميرا مركزة على النهر بين الثديين .

وكأنما لا وسيلة لجذب الانتباه الا باستخدام هذا المعبود الجديد .. ولا طريقة لشد العين الا بالتلويح بهذا الوثن .

انه الذكر والابتهال والتسبيح العصري تسفح فيه الدموع وتنشد الاشعار وترتل المزامير والاغاني والرباعيات والسباعيات وتؤلف المسلسلات والحلقات كل حلقة تشحذ الذهن وتثير شهية المستمع والمتفرج لرؤية اللحظة الفاصلة .. لحظة تخلع البطلة عذارها وتلقي ثيابها وتكشف عن المعبود المنشود .

اما الصنم الثاني أو لعله المعبد او الكاتدرائية العظمى أو الكعبة أوجبل الأولمب الذي يتجمع فيه حشد الآلهة العصرية فهو فاترينة البضائع الاستهلاكية التي تتحلق حولها العيون مشدوهة مبهورة مسبحة تكاد تركع للثلاجة والريكوزردر والتليفزيون والساعة الذهبية والسوار الماسي . والابن يقتل أباه والأخ يسرق أخاه والموظف يختلس والصانع يغش والصراف يزور والمزيف يزيف في سبيل هذه الفاترينة الوهاجة .. فاترينة الاحلام .. الكل يتهجدون ويسهرون الليل يصلون لها .. وكل شيء يفنى ما عدا وجهها ذي الجلال والاكرام المضاء دائما بالنيون والفلورسنت في حي المال والتجارة من كل مدينة .

أما الصنم الثالث فهو الهيكل .. هيكل الفكرة المجردة والنظرية والمذهب السياسي الذي يركع فيه المريد المتعصب . لا يرى حقا الا ما تقوله بنود نظريته ولا يرى صدقا الا ما يأمر به مذهبه فاذا سمع من يتكلم عن مذهب آخر فهو خائن مارق فاسق يستحق ان يحرق حيا .. وهويعيش بفكر مقلوب ومنطق معكوس فالانسان عنده يجب أن يوضع في خدمة النظرية لا النظرية في خدمة الانسان .

وهذا هو عابد الصنم الأجوف المجرد وعابد قصاصات الورق والشعارات الطنانة الكاذبة .. وهو أحد مجانين هذا الزمان .

وصنم آخر شائع هو الدكتاتور والحاكم المطلق والطاغية المستبد الجالس على عرش السلطة ومن حوله بلاط الهتافين والمصفقين وحملة المباخر والمجامر والمسبحين بالحمد والمنافقين والكذابين وقارعي الطبول ونافخي الابواق . تزفه الاناشيد والاهازيج في كل مكان .. ويلقن الاطفال في مدارسهم .. انه الرزاق سبحانه والمنقذ والمعين الذي يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ويكسوهم من عري وان عليهم ان يتوجهوا اليه بالتسبيح والتحميد كل صباح .. وان عليهم أن يحفظوا كلماته ويعوا وصاياه ويلتمسوا رضاه .

وربما كان أشيع أصنام هذا العصر واكثرها انتشارا هو صنم « الذات » .. عبادة النفس .. واتباع الهوى .

المرأة التي تعبد جمالها .. والرجل الذي يعبد أناقته .. والممثل الذي يفتتن بشهرته . والفنان العابد لفنه .. والبطل المبهور ببطولته .. والمتحدث اللبق الذكي المعجب بنفسه وبذكائه . ونجم السهرة المزهو بشخصيته .. وصاحب الملايين الفرحان بملايينه .

والمال في أكثر الاحوال وفي هذا العصر المادي صنم في ذاته تقدم له القرابين من دم الجميع .

وقد يختفي صنم « الذات » وراء صنم أكبر هو « العصبية » للعائلة او القبيلة أو الطائفة أو العرق أو العنصر أو الملة وكلها اصنام .. وكلها عبوديات .. وكلها شرك .

وعابد الله لا يكون عبدا لله الا اذا تحرر منها جميعا وأسلم قلبه ووجهه خالصا من جميع الشواغل والعلائق والتبعيات والمنازعات .

القلب لله « بلا منازع » .. هذا هو الدين .

أما ما نحن فيه فهو جاهلية .. جاهلية العلم .. التي جاءت بأصنامها الجديدة ونصبت أوثانها العصرية واقامتها مكان اللات والعزى وهبل وبعل وأقامت لها الهياكل ووظفت

لها السدنة والكهان، وقدرت لها النذور والقرابين .

ولو أننا جلسنا الى أنفسنا وصارحنا أنفسنا في لحظة صدق لوجد أكثرنا نفسه في احدى خانات عباد الاصنام يسبح دون ان يدري لوثن من تلك الاوثان الخفية التي أقامها عصر المادة في قلوب الناس .

الحب والعداوة

الصحبة السعيدة فن ..

والمعاشرة الحلوة موهبة واقتدار ليس لكل واحد حظ فيه .. ويخطىء من يظن أنه يمكن أن يحصل السعادة بقراءة كتاب او تطبيق منهج فالسعادة لا توجد في كتب وأنما هي منحة الطبائع النقية والفطر السليمة والبصائر النيرة وهي ثمرة أخلاق وليست ثمرة علم .

وأكثر ما نقرؤه في الكتب عن الحب الامثل والزواج النموذجي والصداقة الناجحة محض اكاذيب .. وبعض هذه الاكاذيب شائع جدا وهو من كثرة ما تردد على الألسن أصبح في مرتبة الحقائق .

من هذه الاكاذيب الشائعة اكذوبة اسمها « الاندماج »..

أن اندماج الاثنين في واحد هو اكبر الشواهد على عمق الحب وحسن الصحة وسلامة المعاشرة .

وهي كذبة عظيمة وثمرة تطبيقها نكبة مؤكدة وكارثة ليست في الحسبان .

أولا لان الاندماج مستحيل ولا يمكن لاثنين ان يصبحا واحدا الا بمجموعة من الاجراءات التعسفية نهايتها المحتومة هي التعاسة .

ورجفة القبلة واستسلام العناق واغماءة الفراش التي نتخذها دليلا على حلاوة الاندماج ليست في حقيقتها الا حالة فسيولوجية عابرة طولها في عمر الزمن ثوان يسترد بعدها كل واحد كينونته وفرديته واستقلاله .. وأي محاولة للدمج بعد الصحو من تلك اللحظات تكون في حقيقتها عدوانا من كل من الطرفين على استقلال الآخر وفرديته ، مثل ما يحدث من التجسس على الخطابات والتصنط على التليفونات وتفتيش الجيوب وشق الدماغ لمعرفة ما فيها بحجة انه لا يجوز أن يكون الاثنان اثنين وانما يجب ان يكونا واحدا لا اسرار ولا خفايا ولا خصوصيات .. واللي في جيبي في جيبك .. واللي في بطني في بطنك .

وينسى الذين يروجون هذا الكلام ان انتهاك الخصوصية

والشخصانية والفردانية هو أسوأ أنواع العدوان وهو اشبه باقتحام المجال الجوي أو التسلل الى أرض مقدسة أو انتهاك الحرمة .

وقداسة الشخصية الانسانية هي في استسرارها واستغلاقها فاذا افتضحت انتهت وسقطت هيبتها واستنفدت بذلك العلاقة الانسانية اغراضها .. وما يلبث بعدها أن يتحول الاثنان الى ألد الاعداء .

لا بد من احترام المسافة التي تحفظ لكل فرد مجاله الخاص وكينونته الخاصة كانسان مستقل له الحق في أن يطوي ضلوعه على شيء .

وامهاتنا كانوا ينادون ازواجهن باضافة القاب ونعوت فكانوا يقولون ياسي محمود أو ياسي حلمي وكان الزوج يقول لزوجته يا أم ابراهيم يا أم حسن .. وكانت تلك الالقاب تحفظ المسافة وتحفظ للعلاقة احترامها .. ولم يكن رفع الكلفة في الفراش يعني رفعها اطلاقا في كل ساعة .. وهو سلوك فطري سليم لان رفع الكلفة اطلاقا في علاقات اليوم أصبح يتداعى الى التخاطب البذيء والى التفاحش في الالفاظ بحجة رفع الكلفة والصراحة .. وهذا بدوره يؤدي الى حالة من افتقاد البراءة والامتهان المتبادل والسوقية والابتذال ثم تنتهي الحياة المشتركة الى حالة من العري والسخف الذي لا يطاق .

وحفظ المسافة في العلاقات الانسانية مثل حفظ المسافة بين العربات أثناء السير هو الوقاية الضرورية من المصادمات المهلكة .

وما يتصوره البعض اندماجا يولد فيه الحبيبان هو في واقع الامر تصادم مهلك يهلك فيه الاثنان ، فلا يمكن أن يصبح الاثنان واحدا إلا بعمليات بتر وتمزيق وزرع أعضاء .. وتكون النتيجة ان يرفض كل جسم العضو المزروع كما يحدث في حكايات زرع القلوب ويموت الاثنان .

والله خلق كلاً منا فردا مفردا فريدا متفردا ونسيجا وحده .. وكل منا يولد وحده ويمرض وحده ويتألم وحده ويشيخ وحده ويموت وحده ويلقى الله وحده ويحاسب وحده .

« ذرني ومن خلقت وحيدا » المدثر ـ ١١

« وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » مريم ـ ٩٥

إلفردية هي حقيقتنا .

والتعاطف والمشاركة الوجدانية والمواساه شيء غير الاقتحام والغزو والادماج .

التعاطف هو الحياة معا

والاندماج هو أن يقوم أحد الطرفين في انانية بالتهام

الآخر وهضمه واستيعابه والاستيلاء على مخصصاته وخصوصياته .

والحالة الاولى انسانية والثانية جريمة واستغلال نفوذ .

وأعجب ما يحدث ان نجد امرأة تحاكم رجلها على ماضيه قبل ان يلتقي بها ويعرفها وكأنها تملكه من يوم ميلاده وكأنما يمتد عقد الملكية بأثر رجعي .

وهي تسمي ما تفعله حبا .. والحقيقة انه منتهى العدوان وسوء الخلق .. تماما مثل الغيرة التي تسوقها على رجلها بدعوى الحب وهي في حقيقتها ذريعة للتسلط والحجر والتملك والحصار .

والانسان السوي في حاجة دائما الى لحظات انفراد مع نفسه وخلوة مع فكره .. وهي لحظات عزيزة لديه لا يحب أن يقتحمها عليه أحد .. ولذا كان الفراش المنفصل وغرفة النوم المنفصلة بالنسبة للازواج احيانا ضرورة .

ومن الاخطاء الشائعة التي نغنيها ونرددها .. أن « الشك يحيي الغرام ويزيد في نار الاحبة » .

هكذا تقول الاغنية التي يغنيها عبد الوهاب .

وهكذا يتصور الاولاد والبنات .

وهكذا يعاملون بعضهم بعضا .

ولكن خريطة الواقع واستقراء الشواهد في كل بيت تقول ان هذا الحب .. « حب الغيرة والشك والاثرة » .. ينتهي دائما الى فشل .. ثم يتحول الى جحيم العداوة وليس الى نار الاحبة .. والسر في ذلك انه بدأ عداوة ولم يبدأ حبا .. وانه كان العداوة بعينها من أول لحظة .. لان الذي يحب انسانا لا ينتهكه ولا يلغ في احشائه ولا يفكر في أن يكسر دماغه ليعرف ما فيها ولا ينظر إليه باعتباره أرض وقف .. وإنما ينظر اليه كانسان حر له خصوصيته واستقلاله وكينونته .. وهو لا يحاول ان يغزو أرضه أو ينتهك مجاله وانما يحاول أن يضيف الى أرضه أرضا جديدة والى مجاله الحيوي اتساعا جديدا .

ولكنا نعود فنقول ان هذه المسائل مردها في النهاية الى الاخلاق وليس الثقافة .. الى الطبع وليس المدرسة .. فالطبع السمح الكريم هو الذي يشع السعادة والحب من حوله لانه طبع معطاء وهاب بطبيعته أما الطبع الشرير الاناني فهو طبع مناع مستغل لص لا يفكر منذ البداية الا كيف يأخذ وكيف ينهب وكيف يسطو .

وخلاصة القول ان المرأة السيئة حبها هو السوء بعينه ولو تصورت انه الغرام الذي ليس بعده غرام ولو انتحرت دونه ولطمت الخدود وقبلت التراب .

ثم هناك المرأة الاخرى التي تريد الرجل وترفض مشاكله وتطلبه لنفسها معقما مستخلصا مستقطرا من مصادره مثل العطور لا أثر فيه لأي شائبة من ظروفه .. مع ان الرباط الانساني في معناه الحقيقي هو التبني ، والدليل الوحيد على علاقة المرأة برجلها هو تبنيها لمشاكله .. أما أن تحاول تقشيرة لتلقي بالقشر وتأكل اللباب ، فهو لون آخر من الانانية ومن الشخصية الاستمتاعية الاستهلاكية التي تريد ان تأخذ ولا تعطي .

والعلاقة الانسانية لا يمكن اختزالها الى نزهة على النيل وهمسات نجوى ، وانما هي تتضمن حمل تبعة وتبني مشكلة ، وكل تعارف بين اثنين يتضمن قبول مخاطر ، وعلى من يرفض المخاطر أن يغلق عليه بابه ولا يدعي صداقة بأحد فالصداقة هي الاخرى تبعة .. وكلمة الحب وكلمة الصداقة دعوى .

والله لا يتركنا ندعي أي شيء الا ويمتحننا فيه ، بأن يضعنا أمام مخاطر الكلمة ومخاطر التبعة .. فيطالبنا بثمن الصدق ان كنا صادقين .. والله يمتحننا في ظاهرنا وباطننا ويمتحن جواهرنا وقلوبنا وافعالنا .

وربما كانت اشيع خطايانا هي الجزافية في التعبير .. الجزافية في التعبير عن الحب .. والمبالغة في كلمات الاعجاب ..

والاسهال في لغة الصداقة .. والغلظة في الخصومة .. والحدة في الادانة .. والترخص في الاتهام .. والتجاوز في التجريح .. وكلها كلمات نطلقها بلا تحسب فتتحول بعد خروجها الى طاقة مجنونة لا سلطان لنا عليها .. فتدمي قلوبا وتفصم روابط وتزلزل نفوسا .. وينكر الاخ أخاه والحبيب حبيبه .. ولا يعود كل منا هو هو .. وننظر الى بعضنا البغض كأننا غرباء افتقدوا الالفة .

واذا بصديق الامس « الانسان النادر » قد أصبح خصيم اليوم « الانسان الرخيص » المهلهل السيرة .. لمجرد تباديل وتوافيق في لعبة الكلمات وتباديل وتوافيق في الاشخاص .. وبلا حجة سوى حجة القلوب التي تتقلب مع هوى اللحظات.

ويهمس الواحد في نفسه .. لا أصدق أنها هي هي التي تتكلم .. مستحيل .. هذه امرأة لا أعرفها تكلم رجلا آخر لا أعرفه .

وكان أكثر احتراما لنا أن نراقب أنفسنا في الكلمة التي نطلقها حتى لا تستهوينا لذة العبارة وحتى لا يسرقنا سحر الالفاظ فنتبادل حبا هو عداوة ونزاول عداوة هي حب ونغرق في مكالمات هي ترف ويلوذ الواحد منا بالآخر فيطمئن اليه وهو لواذ القلق بالقلق ولكن خيمة الالفاظ الحانية هي التي نشرت هذا العطر الخادع المخدر للحواس فأوحت للاثنين

بأن كلا منهما قد وجد السكن وما هو بسكن وانما هو مجرد محطة استراحة من لهاث الحياة العقيم .

والكلمة شيء خطير .. وهي أشبه بالشحنة تنطلق من الشفتين كالرصاص فتصيب وتجرح وتهدم وتخرب وتحمل مع حروفها العذاب الذي لا شفاء منه .

والله خلق الدنيا بكلمة ..

والمسيح كلمة ..

وتقوم الحروب بكلمة وتضع أوزارها بكلمة

وتقوم الساعة بكلمة وتنهد السموات بكلمة .

فالكلمة شيء كالسحر كالطلسم .. وهي اذا انفصمت عن الفعل أصبحت عبثا واذا تناقضت مع الفعل أصبحت نفاقا .

فما أحلى الصمت .

اللهم اجعل لي صمت الجبل يحمل في أحشائه البركان وهو صامت .. ويحمل في باطنه الزلزال وهو هادىء ويحمل في جوفه الذهب والبلاتين والماس ويبدو متواضعا يفرش نفسه للفقراء والبسطاء .

اللهم اجعل مكالماتي معك وحدك فأنت وحدك الذي تعلم ولا تظلم ولا تتبدل عندك الاقوال والاحكام ولا تضيع عندك محبة .

ساخطون بلا مناقشة

السخط والرفض والتذمر والاحتجاج على كل شيء أصبح موضة اليوم بين الشباب .

أحيانا يكون الاحتجاج على الآباء .

وأحيانا على الحكام .

وأحيانا على النظام الاجتماعي .

وأحيانا على الكون كله .

وأحيانا على الله سبحانه .

كلمة لا .. بدون تمييز .. بقضية وبلا قضية بهدف وبلا هدف ..

وأحيانا لا .. للنظافة .. ولا للقيم والأخلاق .. ولا .. للعمل .. ولا .. للواجب والمسئولية والنظام .

والنموذج الجديد لهذه اللائية المتطرفة هو مجتمع الهيبيين الذين يتناكحون على الارصفة ويمارسون الشذوذ الجنسي ويتسولون ثمن زجاجة بيرة ويشتركون في كل اضراب ويهتفون في كل مظاهرة ويبصقون على كل شيء .. ويتصورون أنهم طلائع الحرية وأنهم أول من خرج من أقفاص الانسانية.. والحق أنهم خرجوا فعلا من أقفاص الانسانية ولكن ليدخلوا في أقفاص القرود .

وكلمة لا .. كانت من أشرف الكلمات حينما قالها محمد لجاهلية زمانه لانها كانت كلمة تحمل معها النور والحق والعدل والخير .

كانت لا .. اشادت أمة من عدم .

كانت لا .. معها رؤية جديدة وكتاب وطريق .

لم تكن معولا يهدم وانما كانت يدا تبني وشعاعا يهدي .

ونحن جميعا مندوبون لنقول لا .. للظلم .. ولا للباطل.. أما لا على وجه الاطلاق .. الثورة للثورة والسخط للسخط.. الخروج من ظلم الى ما هو أظلم .. الخروج من خطأ بنشدان الفوضى .. تهديم كل شيء بدون رؤية .. هذه الصرخة الجديدة التي تتردد الآن في جنبات العالم هي دسيسة دست على شبابه .. ومن ورائها عقول ماكرة تعمل في خفاء وذكاء لإفساد كل شيء .

في الفن في الفكر في الفلسفة في السياسة في الرواية في الموضة في السينما يمكن ان تلمس هذه الايدي الخفية .. وهذه التيارات الخبيثة للتهديم .

غياب الصورة الالهية من الرواية والقصة .

تلك الروايات التي نراها على الشاشة أو نقرأها وكأنها الكوابيس .. ونعيش فيها ساعات ثقيلة مظلمة وكأننا في عالم بلا اله .. ونخرج بحالة من الشك والضياع والتوهان ونحن نلعن كل شيء .

دوران الافكار الروائية في فلك واحد حول الجنس والخيانة واللامبالاة والانحلال وطلب اللذة بأي ثمن بهدف تحطيم روابط الاسرة .

اشاعة الاباحية باسم تحرير العواطف .

افساد الفطرة بالتركيز على الجريمة والشذوذ .

تملق الغوغاء وتحريض الطبقات باسم الثورة والتقدمية .

استخدام الاسلوب الجميل والطرافة والامتاع كغلاف من السيلوفان الجذاب لترويج اسوأ المضامين وأردأ البضائع الفكرية .

فكر سارتر الذي يحمل معه كل من يعتنقه الى حالة من الغثيان والقيء والعبثية والاحساس بعدم الجدوى وبأن الانسان

قذف به في الكون وترك وحده بلا عناية وبلا رعاية .

فكر فرويد الذي يحمل قارئه على الاعتقاد بأن الانسان مجرد غرائز جنسية هائجة تبحث عن الاشباع في النوم واليقظة وفي الطفولة والشباب والشيخوخة .. وبأن أشرف ما أبدع الانسان من فنون وآداب قد خرج من أعضائه التناسلية وبأنه حيوان يغلف شهواته بالمبررات الكاذبة . ولكنه حيوان من مولده الى موته .. التخريب فيه غريزة والتهديم غريزة والموت غريزة .

وعلى نهج فرويد في تفسير سلوك الانسان بالحوافز الجنسية سار الفكر المادي الماركسي في تفسير سلوك التاريخ بالحوافز المادية .

ثم جاء هربت ماركوز ليستفز الشباب الى حالة رفض مطلق وثورة مستمرة لتفجير المجتمع بعد أن تكاسلت البروليتاريا عن تلبية نداء الفكر الماركسي لتهديم البنيان الاجتماعي واخلدت الى الترف والى رشوة الراحة والبقشيش السخي الذي قدمته اليها الرأسمالية الغربية .

وليست مصادفة أن رواد تلك الافكار المادية كانوا جميعا من اليهود ..

ثم سؤال على الهامش .

هل صحيح أن النظر المنصف الى الوجود وتأمل الحياة

في موضوعية يؤدي بالانسان الى حالة من الغثيان والقيء والعبثية والاحساس بعدم الجدوى ويخلف احساسا بأن الانسان قذف به في الكون وترك وحده بلا عناية ؟ ..

وهل صحيح ان الانسان يدور في فلك أعضائه التناسلية ؟

وهل من الممكن تفسير جميع مراحل التاريخ بالصراع الطبقي .. وماذا نقول في الصراع بين روسيا والصين وكلاهما نظام واحد وكلاهما بروليتاريا .. وصراعهما مع ذلك يشكل التاريخ .

وماذا نقول في فدائي يموت في فيتنام او القدس هل هو يدور في فلك اعضائه التناسلية .. وهو الذي يضحي بجسده كله في سبيل حق مجرد ومثاليات صرفة .

أما خرافة الغثيان والقيء والعبثية .. فهي عبثية عند سارتر وحده وقيء خارج من مناخ نفسي وحالة باطنية يعانيها هو .. أما الكون فهوبريء من العبثية منضبط أكثر من ساعة الكترونية سواء نظرنا الى الذرة وهي اصغر ما فيه أو الى المجرة وهي أكبر عوالمه

في الذرة لا يستطيع الكترون أن ينتقل من مدار الى مدار الا اذا أخذ أو أعطى شحنة تساوي حركته من النواة أو اليها .

وهذا هوحال الالكترون الذي لا يعرف له جرم من فرط صغره .

وفي المجرة العظيمة تولد الشموس وتشب وتشيخ وتموت وتتحرك في أفلاك وتدور حولها الكوكبات كل هذا يجري في دقة ونظام وفقا لهندسة مقدرة وقوانين ثابتة لا تخرق .

أما الانسان فلم يقذف به الى الكون بلا عناية . بل العكس هو الصحيح .. فالعناية الالهية حفت به من لحظة ميلاده .. بل من لحظة تكوينه في رحم أمه .. فالعناية سلحته بجميع وسائل الدفاع التي يحتاجها .. سلحته بالسمع والبصر واليد والعضل والحيلة والذكاء والعقل .

وفي المخ وحده عشرة آلاف مليون خط عصبي تنقل الاشعارات وردود الافعال طول الوقت بلا خطأ وبلا عطل .

وفي الكليتين والرئتين والكبد زيادة وافية في النسيج العامل تبلغ سبعة أضعاف الحاجة .. وهذه الزيادة هي الاحتياطي « الاستبن » الذي وهبته العناية الالهية لمواجهة الاعطال والطوارىء المحتملة .

ويموت في الساعة من جسم الانسان ستون مليون خلية تتجدد في نفس الوقت في تلقائية ودقة ونظام بديع ..

وفي الخلية الواحدة التي تبلغ في صغر حجمها واحدا من ألف من المليمتر .. في داخل هذه الخلية الدقيقة نرى بالمجهر الالكتروني مصانع ومخازن وجهازا لتوليد الطاقة (وأرشيف)

ومخا آليا لتنظيم هذه الانشطة المختلفة .. كل هذا داخل صندوق هو جزء من ألف من الملليمتر .

ان لم يكن هذا هو منتهى العناية من الخالق فماذا يكون .. وماذا يكون كلام سارتر عن العبثية في الوجود وعن الانسان الذي قذف به في الوجود بلا عناية .. الا الجرأة على الحق بعينها واذا كان مراد سارتر بالعبثية هو ما يجري على الانسان من مرض وشيخوخة ثم موت وما يجري على الحياة من كوارث وأوبئة وزلازل وبراكين وطوفانات وحروب مهلكة فهذه كلها أمور عارضة ونحن نمرض ونصح وبدون المرض لا نعرف الصحة .. والمرض هو الاستثناء والصحة هي القاعدة والزلازل والبراكين والطوفانات حوادث استثنائية وكل منها له وجه خير ومنافع وفوائد. وبالزلازل والبراكين تستعيد الكرة الارضية توازنها كل عدد من السنين ولولا هذا التفريج والتنفيس المؤقت لانفجرت الارض بالضغوط الهائلة في داخلها .

والآلام والمشقات تربي الجلد والتحمل والمحن تشحذ العزائم كما تربي الامراض الوقاية والحصانة .

والشر في الكون كالظل في الصورة يبدو من قريب عيبا فاذا ابتعدت بعينيك ونظرت الى الصورة نظرة كلية اكتشفت أن هذا العيب هو ظل . أنه جزء مكمل للصورة .

وفي هذا يقول ابن عربي ان نقص العالم هو عين كماله كما أن اعوجاج القوس هو عين صلاحيتها ولو أنها استقامت لانكسرت ولما رمت ... ثم ان عالم الدنيا كلة عالم عارض زائل ولذلك كان شره عارضاً وزائلاً وقد جعله الله مقدمة لخير باق في الآخرة .

والموت ليس نهاية وانما بداية لفصل آخر ، وحياة أخرى .. والحكم على رواية بقراءة سطر واحد منها لا يكون حكما صحيحا .. وانما يجب الانتظار الى أن تتم الرواية فصولا قبل أن نحكم عليها .

ثم هل يجب على الله ان يحقق السعادة للجميع ولماذا .. وكيف نوجب على الله ما نجهل .. وكيف نلزمه بطرق تفكيرنا ووجهات نظرنا .

وهؤلاء الذين يريدونها جنة هل يستحقونها جنة .. وهم ينفثون فيها الشر والحقد والسم في كل لحظة .

ويقول الغزالي في ذلك ويؤيده في رأيه ابن عربي أن الانسان لا يجري عليه قضاء الا من جنس استحقاقه .

« لا يظهر فيك ولا منك الا عينك »

بمعنى أنه لا يجري عليك من الحوادث الا من جنس قلبك ونيتك وضميرك .

ويقول ميترلنك في هذا المعنى : « جرعتك من الماء دائماً تساوي سعة فمك .. انت لا تقابل الا نفسك في الطريق.. اذا كنت لصا أسرعت اليك حوادث السرقة واذا كنت قاتلا قدمت اليك الظروف الفرصة تلو الفرصة لتقتل » .

ان الله صاغ العالم على مقتضى العدل واختار بحكمته دائما أفضل الممكنات ..

وتأمل الكون والحياة لا يكشف للباحث الا الجمال والابداع والنظام والعدل والقانون ولا توجد الفوضى الا في نظمنا نحن .

ولكن العيون التي فيها قذى والقلوب التي مالت عن الحق لا ترى الا العبث والغثيان .. ولا تعمل الا للافساد والتهديم .

هؤلاء هم فرسان الشر وطلائعه .

فلنقرأ كل ما يصل الى أيدينا بحذر وبعقل ناقد فما أكثر ما يدس لنا من سموم يراد بها هلاكنا .

ولنثق دائماً بأن الله كله خير وبأن مشيئته كلها رحمة ومن يشك في كلامي فليقرأ المقال مرة أخرى من الأول .

شق في الحائط

النملة التي تسكن شق الحائط وتتجول في عالم صغير لا يزيد عن دائرة قطرها نصف متر وتعمل طول الحياة عملا واحدا لا يتغير هو نقل فتافيت الخبز من الارض الى بيتها تتصور أن الكون كله هو هذا الشق الصغير وان الحياة لا غاية لها الا هذه الفتفوتة من الخبز ثم لا شيء وراء ذلك .. وهي معذورة في هذا التصور فهذا اقصى مدى تذهب اليه حواسها .

اما الانسان فيعلم ان الشق هو مجرد شرخ في حائط والحائط لاحدى الغرف والغرفة في احدى الشقق والشقة هي واحدة من عشرات مثلها في عمارة والعمارة واحدة من عمارات في حي والحي واحد من عدة احياء بالقاهرة والقاهرة عاصمة جمهورية وهذه بدورها مجرد قطر من عدة أقطار في قارة كبيرة اسمها أفريقيا ومثلها أربع قارات أخرى على كرة

سابحة في الفضاء اسمها الكرة الارضية .. والكرة الارضية بدورها واحدة من تسعة كواكب تدور حول الشمس في مجموعة كوكبية .. والمجموعة كلها بشمسها تدور هي الاخرى في الفضاء حول مجرة من مائة الف مليون شمس .

وغيرها مائة ألف مليون مجرة أخرى تسبح بشموسها في فضاء لا أحد يعرف له شكلا .. وكل هذا يؤلف ما يعرف بالسماء الأولى أوالسماء الدنيا وهي مجرد واحدة من سبع سماوات لم تطلع عليها عين ولم تطأها قدم ومن فوقها يستوي الاله الخالق على عرشه يدبر كل هذه الاكوان ويهيمن عليها من أكبر مجرة الى أصغر ذرة .

كل هذا يعلمه الانسان على وجه الحقيقة .. ومع ذلك فما أكثر الناس أشباه النمل الذين يعيشون سجناء محصورين كل واحد مغلق داخل شق نفسه يتحرك داخل دائرة محدودة من عدة أمتار ويدور داخل حلقة مفرغة من الهموم الذاتية تبدأ وتنتهي عند الحصول على كسرة خبز ومضاجعة امرأة ثم لا شيء وراء ذلك .. رغم ما وهب الله ذلك الانسان من علم وخيال واختراع وأدوات وحيلة وذكاء ورغم ما كشف له من غوامض ذلك الكون الفسيح المذهل .

أكثر الناس بالرغم من ذلك قواقع وسلاحف ونمل كل

واحد يغلق على نفسه قوقعته أو درقته أو يختبىء داخل جحر مظلم ضيق من الاحقاد والاضغان والاطماع والمآرب :

نرى الذي يموت من الغيرة وقد نسي أن العالم مليء بالنساء ونسي ان هناك غير النساء عشرات اللذات والاهداف الاخرى الجميلة .. ولكنه سجن نفسه بجهله وغبائه داخل امرأة واحدة وداخل جحر نملة واحدة التصق بها كما يلتصق بقطرة عسل لا يعرف لنفسه فكاكا .

ونرى آخر مغلولا داخل رغبة أكالة في الانتقام والثأر يصحو وينام ويقوم في قمقم من الكوابيس لا يعرف لنفسه خلاصا ولا يفكر الا في الكيفية التي ينقض بها على غريمه لينهش لحمه ويشرب دمه .

ونرى آخر قد تكوم تحت الاغطية وغاب في محاولة حيوانية لاستدرار اللذة مثل قرد الجبلاية الذي يمارس العادة السرية أمام أنثاه .

ونرى آخر قد غرق في دوامة من الأفكار السوداوية وأغلق على نفسه زنزانة من الكآبة واليأس والخمول .

ونرى آخر قد اسر نفسه داخل موقف الرفض والسخط والتبرم والضيق بكل شيء .

ولكن العالم واسع فسيح .

وامكانيات العمل والسعادة لا حد لها وفرص الاكتشاف لكل ما هو جديد ومذهل ومدهش تتجدد كل لحظة بلا نهاية .

وقد مشى الإنسان على تراب القمر . !

ونزلت السفن على كوكب الزهرة .

وارتحلت الكاميرات التليفزيونية الى المريخ .

فلماذا يسجن الانسان نفسه داخل شق في الحائط مثل النملة ويعض على أسنانه من الغيظ او يحك جلده بحثا عن لذة أو يطوي ضلوعه على ثأر .

ولماذا يسرق الناس بعضهم بعضا ولماذا تغتصب الامم بعضها بعضا والخيرات حولها بلا حدود والأرزاق مطمورة في الأرض تحت أقدام من يبحث عنها .

ولماذا اليأس وصورة الكون البديع بما فيها من جمال ونظام وحكمة وتخطيط موزون توحي باله عادل لا يخطىء ميزانه .. كريم لا يكف عن العطاء .

لماذا لا نخرج من جحورنا .. ونكسر قوقعاتنا ونطل برؤوسنا لنتفرج على الدنيا .. ونتأمل .

لماذا لا نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الاكبر ثم نتخطى الوطن الى الانسانية الكبرى .. ثم نتخطى الانسانية الى الطبيعة وماوراءها ثم الى الله الذي جئنا من غيبه

المغيب ومصيرنا ان نعود الى غيبه المغيب .

لماذا ننسى ان لنا اجنحة فلا نجرب ان نطير ونكتفي بأن نلتصق بالجحور في جبن ونغوص في الوحل ونغرق في الطين ونسلم قيادتنا للخنزير في داخلنا .

لماذا نسلم أنفسنا للعادة والآلية والروتين المكرور وننسي أننا احرار فعلا .

لماذا أكثرنا نمل وصراصير ..

الصدق والكذب

نشاطركم الأحزان
للفقيد الرحمة ولكم طول البقاء
دموعنا لن تجف حتى نلتقي
الى جنة الخلد مع الأبرار القديسين .
خسارتنا بك لا تعوض
ذكراك العطرة تملأ قلوبنا
نرثيك وبدموع الحسرة نبكيك
خالص العزاء ولكم الصبر والسلوان

ـ تشرب سيجارة
ـ متشكر باشرب انجليزي
ـ آدي حال الدنيا
ـ مين بيخلد

ـ ترك فدانين وفيللا في المعادي
ـ مراته حاتورث ع الجاهز
ـ هي الوليه التخينة اللي هناك اللي بتاكل بسطرمة
ـ عينها تندب فيها رصاصة
ـ كانت دايما تقول عليه نسناس

صورتك في خيالي يا أبي لن تفارقه .. بنتك أمينة .

نم بين أذرع الملائكة يا حبيبي ورحمة الله ترعاك .. زوجتك الوفية .

الحزن يدمي فؤادي واللوعة عليك تحرقني .. أختك أزهار .

الحياة بعدك مستحيلة .. لن أسلوك أبدا .. ولن أنسى عطفك وحسن رعايتك .. ابنك فتحي .

ـ مين اللي بتعيط بحرقة هناك .
ـ واحدة ما حدش يعرفها ولا تعرفشي حد .
ـ بتلطم وبتقول بنتي حبيبتي .
ـ بتعيط على حاجة تانية .
ـ كل واحد بيندب على نفسه .
ـ مراته بترقع بالصوت الحياني .. عشان تهضم البسطرمة .

ـ يا شيخ حرام عليك .

ـ هي دايما بترقع بالصوت الحياني في كل مناسبة .. لما تضيع منها بكرة الخيط ترقع بالصوت الحياني .. لما يعطل الأسانسير ترقع بالصوت الحياني .. لما تقع كبايه ترقع بالصوت الحياني .

ـ بتقول يا سبعي .

ـ ولو طلع من التربة تأكله وحياتك .

ـ اعوذ بالله انت فيه بينك وبينها ايه .

ـ أصله كان دايما يشتكي لي منها الله يرحمه وكان يهرب منها وييجي يبات عندي ويقعد طول الليل يندب حظه ويقول مفيش حد يخلصني من الولیه النكد اللي بتصرخ ليل نهارزي الكلاكس دي .. دنا ساكن في جراج مش بيت .

ـ اهو ربنا خلصه .

يس . والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

الفقي بيقرا وما حدش بيسمع .

ـ وكل واحد بيهز رأسه ويقول الله .

ـ حتى الفقي عقله في حاجة تانية غير اللي بيقولها

ـ صدقت .. لوكان عقله في اللي بيقوله ما كانش قعد يلعلع كده وكان خشع شويه .

ـ حاجة عجيبة .. والله أنا صعبان عليّ الميت .. ولو كنت أنا الميت دلوقت كنت حابقى زعلان قوي على نفسي .. تصور يعملوا لي شادر ومندبة وملطمة ويوزعوا قهوة سادة على روحي .. ومفيش واحد منهم بيفكّر في روحي .. طيب كان لازمته ايه .. طيب ما يدفنوني وخلاص ما دمت بالنسبة لهم اندفنت وانتهيت .. ايه لازمته المورستان ده .

ـ كل واحد عاوز يحس أنه زعلان وأنه أدى الواجب .. انت عاوز تنكد عليهم ليه يا أخي .. أنت عاوز تموت على كيفك .. المأتم ده معناه كل واحد جاي يموتك على كيفه .. فاهم .

ـ لا مش فاهم .

ـ أما تموت باذن الله حاتفهم .

ـ حاكتب وصية ان ما حدش يكتب حرف أو يقدم نقطة قهوة على روحي .

شعاع الشمس تجسد فيك .. انت نور حياتي الذي لا يغيب .. انت في سواد العين .. انت في شغاف القلب يا حبيبي .. اسمك تسبيحتي خيالك غرفتي .. ابتسامتك وسادتي التي أغفو عليها .. أنفاسك عطري المحبب .. كلماتك مصحفي المقدس الذي لا يفارقني .. ذكراك تاريخي أيامك حياتي كلها .. لن انساك أبدا .

حبيبتك الحافظة لعهدك حتى الموت

ـ تفتكر كانت بتحبه .

ـ كلامها حلو .. مؤكد كانت بتحبه ساعة ما كتبت الكلام ده .. لكن بعد كده ما اعرفش .. كل شيء [illegible] يتغير في دنيا القلوب .. بيسموها قلوب لانها تتقلب .

ـ الا يوجد شيء باق .

ـ الله باق .

* * * * *

كنا عائدين من اداء الواجب حينما قال لي صديقي

ـ انعيش في كذب دائم .. الا يوجد صدق .

قلت له :

ـ بل نحن نصدق دائما ولكنه صدق محدود صدق لحظتها .. كلماتنا عمرها عمر الرسم على الماء والنقش على الرمال .. وهي في العادة صادقة في حدود

هذا العمر القصير الا فيما ندر .

ـ وبعد ذلك .

ـ بعد ذلك تتغير الظروف وتتبدل الملابسات و تمتحن العواطف والاقوال والاعمال .. وتبتلي النفوس في جواهرها وتتقلب القلوب .. ويأتي بعد الليل النهار وبعد النهار الليل .. فنحن على أرض تدور .. اليس كذلك .

ـ الا يوجد حب يصمد للامتحان الا يوجد حب باق .

ـ احيانا .. ولكن هذا الحب الباقي في العادة تعيا عن حمله الكلمات .. والذي يحب هذا الحب اذا حاول أن يعبر عن نفسه لا يخرج منه الا كلام عبيط .. اوعبارات بلا معنى .. ومثل هذا الحب يكون في أغلب الاحوال أزمة في الصدر وعطشا خلف الضلوع لا ارتواء له ولا حل له .

ـ اني اتمنى ان تحبني امرأة هذا الحب .

ـ اني لا اتمنى ان تحبني امرأة هذا الحب أبدا .

ـ لم

ـ لأن المرأة التي تحب هذا الحب لا تسامح .. انها ترى نفسها قد اعطت روحها فلا اقل ان تأخذ روحي والذين يحبون هذا الحب هم بين قاتل ومقتول وأنا لا أحب ان اكون احدهما .

ـ بل هو الحب الرائع .

ـ بل هو الاشراك بعينه وعبادة المخلوق من دون الخالق وهذا ما قاله الامام الغزالي في حب المرأة الواحدة اذا كان استغراقا وصبابة .. قال انه السقوط في الشرك .. ولهذا اباح الاسلام تعدد الزوجات ليحول دون هذا الاستئثار .. وحتى لا يكون التوحيد الا لله .

ـ وهل تظن انك تختار قدرك .. الا يمكن أن يداهمك هذا النوع من الحب رغم انفك فلا تملك منه فكاكا

ـ انه يكون مصيبة .. وكارثة وأسرا .. وسجنا .. واغلالا .. ومثل هذا الحب لا يكتبه الله الا على عبد غضب عليه ولعنه وأضله وأرجو الا أكون من المغضوب عليهم ولا من الضالين .. وأرجو أن أعرف معبودي فلا أضل عنه وأنه هو الله وحده جامع الكمالات .. الاجمل من كل جميل .. مهوى الافئدة وسكن الارواح .

ـ وماذا للمرأة المثلى عندك .

ـ لها عندي المودة والرحمة والصحبة الطيبة .. ولا أكثر .. لا غل ولا قيد ولا أسر .. وانما ضيافة كريمة يستضيف فيها كل منا الآخر مدى أيام الدنيا الشقية ويعاونه على تحملها .

- سوف أعيش وأفرح فيك وأراك بإذن الله في الاسر والغل والقيد غريقا لشوشتك في اذيال امرأة حتى تتوب عن تعذيبنا .

- تبت .. ولا داعي للبلاء .. اللهم لا تدخلنا في تجربة .. اللهم لا تكتب عليَّ الا حبك .

- وهل يتنافى حب الله مع حب الناس .

- بل هو يدعو الى حب الناس ولكن بلا غل وبلا قيود وبلا عبودية حب المودة والرحمة لاسعار الغرام وضرام الشهوات .

- وهل يمكن أن يغنيك حب الله عن الحاجة الى غرام بشري .

- نعم اذا استطعت أن أفهم معنى النظر الى وجهه ومعنى أن كل شيء هالك الا وجهه .. ومعنى ان عشق الهالكين هو الهلاك معهم وأن في حبه وحده الخلاص والعتق والحرية .

- وكيف تنظر الى وجهه ؟

- أستشفه في صدح الطيور وفي نور الفجر وفي جناح الفراش وفي بصمة الاصبع وفي عطر الوردة وفي العدل المستتر وراء الألم والحكمة الخافية في العذاب .. وأشعر

به في استسرار الليل وابهام الموت وطلسم القدر .. واحس به في الحقائق التي تُلقى في عقلي بلا لغة وبلا عبارة وفي السكينة التي تسعفني ساعة الخطر وفي الوضوح الرائع الذي يتجلى عليّ لحظة الازمة .. وفي الاحساس الحميم بالصحبة والونس وأنا وحدي ، وفيما هو أكثر من ذلك من لطائف الاسرار التي يمكن ان تحدث بين العبد وربه مما لا يكتب ولا يقال .

ـ اهناك شيء لا يمكن ان يقال .

ـ كل ما هو مطلق لا يمكن ان يقال .

ـ وكيف نعرفه ؟

ـ لا نعرفه ولكن نكابده .. احساسك بذاتك مكابدة وليست معرفة ومع ذلك فهي أعلى من جميع المعارف في درجة اليقين .. ذاتك أمر لا يرقى اليه شك .. ومع ذلك فهي أمر لا يمكن أن يتوضح كما تتوضح المعارف .. والحقائق العليا كلها مكابدات وليست معارف . والمتصوفة يسمون هذا الاحساس بالله .. حضورا .. وحضرة .

ـ وهل يمكن ان نصل الى هذه الحضرة بالاجتهاد .

ـ لا نستطيع الا ان يساعدنا هو

ـ وهل دخلت هذه الحضرة .

ـ أنا أبعد الناس عن هذا الشرف أنا حالي مثل حالك ومثل حال المرحوم الذي دفناه اليوم ومثل حال الخطائين الذين يتقلبون مع الليل والنهار .. ولكنني احاول .. مجرد محاولة .

فهرست

